الزلازل

توجيهات وتنبيهات

للعلامة محمد بن صالح العثيمين

اعتنى بنشره

د. إياد العكيلي

غفر الله له وللمؤمنين والمؤمنات

١٤٤٤ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فهذا بحث جمعتُ فيه ما تناثر من أقوالٍ للشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ حول (الزلازل)، آية من آيات الله ﷻ يرسلها لعباده عظة واعتبارًا وإنذرًا وتخويفًا، استدعته الزلازل الرهيبة التي وقعت في تركيا وتأثّر ما حولها من البلدان الإسلامية كسورية وفلسطين ولبنان والعراق والأردن في شهر رجب ١٤٤٤هـ، وقد وُصف بأنه من أعظم الزلازل التي وقعت في التاريخ من حيث عواقبه وآثاره وسعة نطاقه.

ويتلخّص عملي بجمع ما وقفتُ عليه من كتب الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حول هذا الموضوع، وترتيب فقراته، وعنونتها، وتوثيق نقولاتها، وذكر بعض ما يتعلّق بها من فوائد.

والله ﷻ أسأل أن يرحم موتى المسلمين الذين توفاهم الله في هذه الزلازل وأن يجبر مصاب المتضرّرين منها ويهوّن آلامهم ويشفي مرضاهم ويعوضهم خيراً في الدنيا والآخرة.

كما أساله ﷻ أن ينفع بهذا البحث ويغفر لمؤلفه وجامعه وقارئه وكل من ساهم بنشره.

والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

١-موتى المسلمين في الزلازل شهداءٌ عند الله ﷻ.

قال رسول الله ﷺ: "الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغريق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله ﷻ"(١).

الأول: المطعون: وهو الذي مات بالطاعون، والطاعون: وباءٌ عظيمٌ فتّاكٌ، ومنهم من قال: إنها أورام تخرج في الجلد وتنتشر فيه حتى تعدمه، ومنهم من قال: إنّه عام في كل وباء مُعْدٍ فتّاك.

الثاني: المبطون: وهو كل من مات بداءٍ في بطنه.

الثالث: الغَرِق: وهو الغريق بنهر أو بحر أو وادٍ أو غير ذلك.

الرابع: صاحب الهدم: وهو الذي ينهدم عليه البيت فيهلك، سواء كان الانهدام بكثرة السيول أم بالزلازل فإنّه يكون شهيداً.

ومن المعلوم: أنه لا بد أن يكون الذي حصل عليه الهدم -وكل من سبق- مسلماً، أمّا إذا كان كافراً فليس بشهيد، فالزلازل التي تدمّر الكفّار، وتقتل أهلَها فلا نقول: إنّهم شهداء؛ لأنّهم كفارٌ، وليس لهم في الآخرة من نصيب.

الخامس: الشهيد في سبيل الله: والشهيد في سبيل الله شهيد في الدنيا وفي الآخرة، وهو الذي قُتل في جهاد الكفار، وكان قد قاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

فمن مات بهدم أو حرق أو غرق فهو شهيد، ولكن لا يُعطى حكم الشهيد المقتول في سبيل الله. فإنَّ الشهيد المقتول في سبيل الله يُغفر

---

(١) البخاري: ٦٥٣ مسلم: ١٩١٤.

له كل شيء إلا الدَّين[٢]، والشهيد المقتول في سبيل الله لا يُغسَّل، ولا يُكفَّن، ولا يُصلَّى عليه، ويُدفن في ثيابه بدمائه؛ كما أمر بذلك النبي ﷺ سَنَة أحد[٣]، لأنَّه يُبعث يوم القيامة وجرحه يثعب دماً، اللون لون الدم والريح ريح المسك[٤]، ولأنَّ المقتولَ في سبيل الله لا يُفتن في قبره أي: لا يأتيه المَلَكان يسألانه عن ربه ودينه ونبيه؛ اكتفاءً بالمحنةِ العظيمةِ التي حصلت له بالجهاد في سبيل الله حيث عرَّضَ رقبتَهُ وعرَّض نفسَهُ للتلف والهلاك إعلاءً لكلمة الله ﷻ وقد جاء في الحديث: "أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله ما بال المؤمنين يُفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال ﷺ: كفى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ على رأسِهِ فتنةً"[٥]، وهذه الأحكام لا تثبت للشهيد الذي مات بالأسباب الأخرى، لكن يرجى له أن يكون شهيداً[٦].

ثم إنَّ هاهنا نقطة أحبُّ أن أقولَها وهي: أنَّ من قُتل في سبيل الله فهو الذي يُقاتِلُ لتكون كلمة الله هي العليا فهو شهيد، ولكنَّنا لا نشهد لشخصٍ معيَّنٍ بأنَّه شهيد، وإن قُتل في المعركة، وقد بوَّب البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه على هذه المسألة فقال: باب لا يُقال فلان شهيد، واستدلَّ بالحديث الصحيح: "والذي نفسي بيده لا يُكْلَمُ[٧] أحدٌ في سبيل الله -والله أعلم بمن يكلم في سبيله- إلا جاءَ يومَ القيامةِ واللون لون الدم والريح ريح المسك"[٨]، فقوله ﷺ: "والله أعلم بمن يُكْلَمُ في سبيله":

---

(٢) لقوله النبي ﷺ: "يُغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَّين"، صحيح مسلم: ١٨٨٦.

(٣) انظر: صحيح البخاري: ١٣٤٣.

(٤) انظر: صحيح مسلم: ١٨٧٦.

(٥) صحيح الترغيب والترهيب للألباني: (١٣٨٠).

(٦) فتاوى نور على الدرب: (٦/ ٦٧) باختصار وتصرف يسير.

(٧) الكَلْمُ: الجَرحُ والجُرح، وجمعه كُلوم وكِلام، انظر: المعجم الوسيط: (٢/ ٧٩٦).

(٨) البخاري: ٤/ ٣٧ و٢٨٠٣، مسلم: ١٨٧٦.

إشارة إلى اعتبار النيَّة، ونحن لا نعلم بنيِّة هذا المقتول، وإن كُنَّا نعامله بالظاهر فيما يتعلّق بالتغسيل والتكفين والصلاة، لكننا لا نحكم له في الباطن وهو أنه شهيد من أهل الجنة، ولكنَّنا نقول: يُرجى أن يكون من الشهداء"(٩).

(٩) فتاوى نور على الدرب: (٦/ ٦٨).

٢-الزلازل من عذاب الله للكافرين في الدنيا.

عذاب الكافرين يكون في الدنيا ويكون في الآخرة، فأما عذاب الدنيا فبالأسر والقتل والزلازل والفيضانات وما أشبه ذلك، قال الله ﷻ: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ} [التوبة: ١٤]، وهذا يكون بالقتل والأسر، وأما العذاب بالزلازل وشبهها فكقوله ﷻ: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الدخان: ١٠، ١١]، هذا عذاب من الله عزّوجل، والأول عذاب بأيدي المؤمنين(١٠).

---

(١٠) تفسير آل عمران: (١/ ٣٤٥).

٣-الزلازل التي تصيب الكفار أكبر دليل على أنَّ أموال الكفار وأولادهم لا تُغني عنهم من الله شيئًا.

أموال الكفار وأولادهم لا تُغني عنهم من الله شيئًا، فإذا انتصرنا بالله فإنَّ ما عندهم من الأسلحة والذخائر والأموال والأولاد لا يُغنيهم من الله شيئًا، ولهذا لو شاء الله ﷻ أن يُبطل جميع ما فعلوا لأبطله، وما يحصل من الزلازل التي تدمّر كثيرًا مما صنعوا أكبر دليل، وكذلك ما صنعوه قد يفسد بأيديهم، فكم من انفجارات حصلت في مخازن القنابل الذرية والنووية وحصل بذلك شر عليهم وعلى من حولهم، ولو شاء الله لأعتم عليهم الجو فقط إعتامًا بالضباب ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يقهر قدرتَه وقوتَه شيءٌ، ولهذا قال: {لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا} [آل عمران: ١٠][١١].

(١١) تفسير آل عمران: (١/ ٦٩).

٤-موقف المسلم من إهلاكِ الله للكفار المجرمين بالزلازل ونحوها.

أ-إهلاكُ اللهِ للأممِ المستحقِّين صفة كمال يَنبغي أنْ يُحْمَدَ عليها، ولا يعذِّب اللهُ إلَّا مستحِقًّا، فعلى هَذَا إذا أصيبَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّار بالكوارثِ منَ الزَّلازِلِ والفيضاناتِ والأوبئةِ فما مَوْقِفُنا نحنُ مِن ذلك، هل نترحَّم لهم ونَأوِيْ لهم؟ لا، لكِن بعض النَّاس الجهّال فِي وقتنا هَذَا تَجِدُهم يَتَأَوَّهُون لهم وَيتَوَجَّعُون لهم ويعطِفون عليهم ويرحمونهم، وهَذَا خلافُ العقلِ وخلافُ النقلِ، بل إننا إذا أوقعَ اللهُ بهم ما يُوقِعِ من عُقُوباته فإنَّنا نَقُول: الحمد لله، نَحْمَد الله عَلَى ذلك؛ لِأَنَّ إهلاكهم مَصْلَحَة للإسلامِ والمُسلِمينَ، ما من فردٍ يَزِيدُ فِي الْكُفَّار إلَّا ويزدادون به قوَّة عَلَى المُسلِمين.

فإذَنْ: إهلاكهم نِعْمَة منَ اللهِ ﷻ علينا أنْ نَحْمَدَ اللهَ ﷻ عليها، ولا ينافي هَذَا أن نَعْطِفَ مثلًا عَلَى الصغار منهم؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ لا ذنبَ لهم.

مثلًا لو فرضنا أن قرية أُهلِكَت وبقي أَيْتَامُها وهم كفار فَإِنَّهُ لا مانعَ مِن أن نَتَصَدَّقَ عليهم؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ لا ذنبَ لهم ولا جريمة لهم، وربما يَعِيشون فِي الإِسْلامِ فيما بَعْد، إِنَّمَا هَؤُلَاءِ المكذِّبون المجرمون إذا أَهْلَكَهُمُ اللهُ فإن الواجبَ علينا أن نحمدَ اللهَ، لا أنْ نَتَرَحَّمَ لهم ونَرِقّ لهم، هَذَا خلافُ ما عليه بعضُ النَّاسِ اليوم الَّذِينَ فَقَدُوا الغَيْرَةَ الدينيةَ ولم يكن فِي قلوبهم الولاءُ والبَرَاء؛ لأن كثيرًا من النَّاس فَقَدُوا الولاء والبراءَ، وبعض النَّاس فقد البراءَ فقطْ، ومعه الولاءُ لَكِنَّهُ وليٌّ لكلِّ أحدٍ، وبعض النَّاس بريء من كُلّ أحدٍ أيضًا، لا يحب المُسلِمينَ ولا الكفارَ، ولكِن هَذَا نادرٌ، إِنَّمَا الكثير فِي وقتنا هَذَا هُوَ الولاء للجميعِ، وَأَنَّهُ لا يُبْغِضُ أحدًا، فالمسألة عنده إِنْسَانيَّة

وليستْ دِينيَّة، وهَذَا خطأٌ وخطرٌ، أيضًا مَعَ كونه خَطَأ فَهُوَ خطرٌ؛ لِأَنَّ أوثقَ عُرَى الإيمانِ الحبُّ فِي اللهِ والبُغْضُ الله(١٢).

ب-لا بَأسَ أن نَفرَح إذا أَصاب الله عَدُوَّنا بمُصيبة؛ لأن الظاهِر أن قوله ﷺ: {فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ} [غافر: ٧٧] لأَجْل أن تَقَرَّ عَينُه ﷺ بذلك، فإذا أُصيب أَعداؤُنا بخَسْف أو صَواعِقَ أو فَيضانات، أو ما أَشبَه ذلك، وفرِحنا بهذا، فلا لومَ علينا، لأنهم أَعداؤُنا يَفرَحون بما يُصيبنا، فالجَزاء مِن جِنْس العمَل(١٣).

(١٢) تفسير سورة النمل: (ص ٣٣٦)، وقال النبي ﷺ: "أوثق عري الإيمان: الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله"، الصحيحة للألباني: (٩٩٨و١٧٢٨).

(١٣) تفسير سورة غافر: (ص٥١٧).

٥-الزلال قدّرها الله ﷻ لحكمة.

أ-وقوله ﷻ: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} أي: كان عليمًا بمن يستحق، وبمقدار ما يستحق، وحكيمًا في وضع الحق في أهله، كمًا وكيفًا، فهو ﷻ له العلم التام، وله الحكمة التامة.

وبالعلم والحكمة تتم الأمور؛ لأن تخلف الأمور سببه أحد أمرين: إما الجهل، وإما السفه، فإذا وُجد العلم ارتفع الجهل، وإذا وُجدت الحكمة ارتفع السفه، فلما اجتمع في حقّه ﷻ العلم والحكمة، انتفى أيّ اعتراض يُمكن أن يُعترض به على الحكم، ولهذا نجد الجاهل يتخبط في الأحكام؛ لأنه جاهل، ولو كان عنده حسن قصد وحسن إرادة، لكنه جاهل، وتجد العالم السفيه الذي ليس عنده حكمة ترشده إلى ما فيه الخير يتخبّط ويتعسّف، أما من لديه علم وحكمة فإنه كامل الحُكم، وأحكامه تامة؛ والله ﷻ هو العليم الحكيم.

والعليم والحكيم من أسماء الله ﷻ، والعلم إدراك المعلوم على ما هو عليه، فخرج بقولنا: "إدراك المعلوم" من لم يدرك، فهذا جاهل جهلًا بسيطًا، وخرج بقولنا: "على ما هو عليه" من أدرك الشيء على غير ما هو عليه، وهذا جاهل لكن جهله مركّب.

والجهل البسيط أهون من الجهل المركب، ونضرب لذلك مثلًا: فلو سأل سائل عن غزوة بدر، فقيل له: وقعت في رمضان في السنة الثانية، فهذا المجيب عالم، ولو أجيب بأنها في السنة الثالثة، فهذا جاهل جهلًا مركبًا، ولو أجيب بـ"لا أدري" فهذا جاهل جهلًا بسيطًا، وهو خير من الجهل المركب.

و"الحكيم" مشتق من الحُكم والحِكمة، فهو ﷻ حاكم، وهو مُحْكِمٌ، فعليه تكون "حكيم" بمعنى "فاعل" إذا كانت من الحُكم، وبمعنى "مُحكِم" إذا كانت من الحكمة[١٤].

وحكم الله ينقسم إلى قسمين: حكم كوني، وحكم شرعي، فقول أخي يوسف: {فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي} [يوسف: ٨٠] هذا حكم كوني، ولهذا لم يقل: "علي" بل قال: "لي"؛ أي: يُقدّر لي ذلك، وقوله ﷻ في سورة الممتحنة عندما ذكر أحكام النساء: {ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ} [الممتحنة: ١٠] هذا حكم شرعي.

والفرق بينهما يُقارب الفرق بين الإرادتين الكونية والشرعية: فما تعلّق بما يحبه ﷻ فأمر به، أو يكرهه فنهى عنه، فهذا شرعي، وما تعلق بتقديره ﷻ، سواء أحبّه أم لم يحبه، فهو كوني، والحكم الكوني لا بد من وقوعه، والحكم الشرعي قد يُمتثل وقد لا يمتثل.

أما على الوجه الثاني في "الحكيم" وهو المُحكِم، فنقول:

الحكمة وضع الشيء في موضعه، وتتعلق بالحكم الكوني والحكم الشرعي، ثم هي إما حكمة باعتبار الصورة المعيّنة، وإما حكمة باعتبار الغاية، فإذا ضربت اثنين في اثنين صارت أربعة.

فالحكمة تتعلّق بالحكم الكوني على صورته المعيّنة وعلى غايته الحميدة، فمثلًا: الحكم الكوني إذا حكم الله ﷻ على أناس بالفقر والمرض والزلازل وما أشبه ذلك، فهذا حكم لا شك أنه متضمن لحكمة، كونه وقع على هذا الوجه حكمة، والغاية منه حميدة، وهذه حكمة

(١٤) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى لأبي إسحاق الزجاج: (ص ٥٢).

{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم: ٤١].

وقد خلق الإنسان على هذه الصفة لحكمة، خُلق قائمًا منتصبًا وغيره على العكس؛ لأن الإنسان له وظائف من قيام وركوع وسجود لا تتم إلا على خلقه على هذا الوجه، فلذلك خلقه الله ﷻ قائمًا منتصبًا دون غيره من الحيوانات، فكونه على هذا الوجه حكمة، وكون الغاية من ذلك أداء الوظائف التي كلّفه الله بها، هذه حكمة أخرى، وهكذا في الشمس والقمر والجبال والأنهار وما أشبه ذلك.

وفي الشرع أيضًا حكمة على الصورة المعينة وحكمة في الغاية، فكون الشرع جاء على هذا الوجه: الصلوات الخمس، وأوقاتها متفرقة، وعددها كذا وكذا، هذا لا شك أنه مطابق للحكمة؛ ولهذا فإن الصلوات كلها مقرونة بتغيّر الشمس في الأفق، فالفجر عند إقبالها، والمغرب والعشاء عند إدبارها، والظهر والعصر عند توسطها وميلها، فلا بد أن يكون هناك سبب، فهذه حكمة، والغاية من الصلاة حكمة أيضًا.

إذًا: فالحكمة تتعلق بالحكم الكوني والشرعي على الصورة التي هو عليها، وعلى الغاية المقصودة منه، فتكون أربعًا: حكمة في الحكم الكوني باعتبار الصورة التي هو عليها، وحكمة في الحكم الكوني باعتبار غايته، وحكمة في الحكم الشرعي باعتبار الصورة التي هو عليها، وحكمة في الحكم الشرعي باعتبار الغاية المقصودة منه، وكل هذه المعاني الجليلة العظيمة يتضمنها قوله: "حكيمًا".

فأسماء الله في الحقيقة مملوءة من المعاني، وهي حسنى كما وصفها الله ﷻ(١٥).

ب-اسم الله (الحكيم): مأخوذٌ من الحُكْم والإحكام، فإذا كانت من الحُكم فهي بمعنى: حاكم، أي: هو الحاكم في كل شيء، وإن كانت من الإحكام فهي بمعنى: مُحْكِم، والمحكم هو الذي منه الحكمة، فأحكم: أي: أتقن كل شيء، كما قال ﷻ: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} [السجدة: ٧]**، فيجب أن نعلم أن هذا وصف الله ﷻ: أن له الحكم فهو الحاكم قدرًا وشرعًا، دنيا وأخرى، وأن نعلم أن له الحكمة في كل ما يفعله، وكل ما يحكم به من أمور كونية وأمور شرعية، وإذا علمنا هذا استسلمنا تمامًا للأحكام الشرعية والأحكام الكونية، فلا نقول مثلًا: إذا قدّر الله تعالى وباءً أو قدر زلازل وما أشبه ذلك، لا نقول: هذا عبث، بل نقول: هذا لحكمة، فالحكمة تكون في ذات الشيء، وتكون في غايات الشيء، وتكون في الشرع، وتكون في القدر، فالأقسام إذًا أربعة**(١٦).

---

(١٥) تفسير سورة النساء: (١/ ٧٩) باختصار.

(١٦) تفسير سورة المائدة: (٢/ ٥٥٧).

٦-الردّ على من يقول بأنَّ الزلازل مجرد أمور طبيعية.

الكفّارُ لا ينتفعون بما سمعوا ولا ينتفعون بما شاهدوا؛ لقوله ﷻ: {وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا} [الأنعام: ٢٥، الأعراف: ١٤٦].

والآياتُ نوعان: آيات قدرية وآيات شرعية، فمن الآيات القدرية: ما يُحدثه الله ﷻ في الكون؛ كانشقاق القمر، وهبوب الرياح التي أرسلها الله ﷻ على الأحزاب، وكذلك نزول المطر وامتناعه، وأشياء كثيرة لا تُحصى، ثم الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب، كلها من آيات الله الكونية.

وأما آيات الله الشرعية فهي: الوحي، فإذا تأمَّلتَ الوحي، وأشرفه القرآن، عرفت ما فيه من الآيات العظيمة في الأخباروالأحكام، فالمؤمن ينتفع، وغير المؤمن لا ينتفع، حتى قال الله ﷻ: {وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ} [الطور: ٤٤] لا يصدّقون بأنه عذاب.

ومن ذلك ما يحدث في زماننا الآن من العواصف القواصف والفيضانات والزلازل هي عند قوم من الأمور الطبيعية التي لا تدل على التهديد والتخويف، وذلك من رين القلوب -نسأل الله العافية-، ومن مشابهة الكفار في أنهم {وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا}[١٧].

(١٧) تفسير سورة الأنعام: (ص ١٣٦).

٧-الزلازل بين الماضي والحاضر.

أهلك اللهُ ﷻ قوم عاد بالريحِ، ومنَ العجائبِ أن الله سبحانه وبحمده أهلكهم على حين تَشَوُّق منهم للرَّحمة؛ لأنَّهم أُصيبوا بالجدْبِ والقَحْط، وبقوا مدَّةً، وصاروا ينتظرونَ الفَرَجَ بالمطرِ، فلمَّا أَرسلَ اللهُ هذه الريح {عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا} [الأحقاف: ٢٤]، فرحوا بذلك وظَنُّوا أنَّ الفَرَجَ قريبٌ، ولكنه كَان فَرَجًا لهُودٍ ونِقمةً عليهم.

قال الله تعالى: {بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ} [الأحقاف: ٢٤ - ٢٥]، وهذه الريحُ الَّتي بَعَثَها الله ﷻ على عادٍ فيها من آياتِ اللهِ ﷻ أنَّ هؤلاءِ القوم الأشدَّاء الأقوياء الفخورينَ بقُوَّتِهم على غيرِهم أُهلكوا بألطف الأشياءِ، وهي الرِّيح.

ثم إنهم أُهلكوا في حالِ الرجاءِ؛ لأنَّ النِّقْمَة إذا أَتَتْ والإِنْسان يَتَوَقَّع النعمةَ، فتكون أشدّ، وكذلك إذا أتتِ النقمةُ والإِنْسانُ في نعمةٍ تكون أيضًا أشدَّ وأنكى، والعياذُ بالله.

وفي قوله ﷻ: {فَأَهْلَكْنَاهُمْ} إلى آخره موعظةٌ لنا لِمَا نَسْمَعُه أحيانًا من هذه الأعاصيرِ المدمّرة الَّتي تُقْلِع الأشجارَ، وتَخْرِب الدِّيارَ، وتُهلِك الثِّمار، وتهلِك الإعمارَ أيضًا، ولكن -مع الأسفِ- فإنَّ الكثيرَ منّا يَصْدُقُ عليهم قولُ الله ﷻ: {وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ} [الطور: ٤٤]، فهذا أمرٌ طبيعيٌّ.

والنَّاسُ الآنَ يَسمَعون بالزلازل، ويَسمعون بالأعاصيرِ، ويَسمعون بالفَيَضَانات العظيمةِ، ولكنَّهم لا يرونها أنها غَضَب من اللهِ ﷻ، ولكن يرون أنها أمرٌ طبيعيّ، ولهذا لا يتأثَّر الإِنْسان بها إطلاقًا، وكَأنَّها لا شيْء،

بينَما ونحنُ صِغاركنَّا إذا سمِعنا أنَّ الأَرْضَ زُلزلت في أُحُدٍ نَرْتَجِف ونحن في بُيُوتنا آمنونَ؛ لأنه ما كَان أحد يقول لنا: إنه هذا أمر طبيعيّ، وهذا أمر لا يُهِمّ، وهذا أمرٌ كائن لا محالَةَ.

ومثل ذلك الكسوفُ، كَان النَّاس في الماضي إذا كَسَفَ القمرُ تَحْصُل منهم رَهبةٌ عظيمةٌ، ويحصُل منهم خوفٌ، ويَحْضُرون بأعدادٍ كبيرةٍ إلى المساجدِ من رجالٍ ونساء، وتحصُل صلاةٌ، وبكاءٌ، وخوفٌ، وقد رأيتُ هذا، أما الآنَ فلا ترى شيئًا من هذا، بل تجد هذا يشاهَد في التِّلفاز أغنيةً، وهذا يسمع أغنيةً من الراديو؟![١٨].

---

(١٨) تفسير سورة الشعراء: (ص ٢٣٦).

٨-الزلازل تأتي بغتة، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

الساعة تأتي بغتة، سواء كانت الساعة الكبرى، أو الساعة الصغرى. فالساعة الصغرى تأتي بغتة فتأتي الزلازل بغتة، وتأتي العواصف والقواصف بغتة، وقد حذر الله ﷻ من هذا فقال: {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ} [الأعراف: ٩٧]، أي: سادرون، لا يفكّرون في عذاب، فيأيتهم وهم نائمون، {أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ} [الأعراف: ٩٨] أي: لاهون، لم يفكّروا أن يأتيهم العذاب فيأتيهم العذاب، {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ} [الأعراف: ٩٩]، بما أنعم عليهم من الأمن والرغد والرخاء، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. فصارت البغتة هنا الساعة الكبرى والصغرى(١٩).

---

(١٩) تفسير سورة الأنعام: (ص ١٦٤).

٩-إذا جاءتِ الزلازلُ فلا يستطيع أحدٌ منعها.

قَالَ اللهُ ﷻ: {أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [النمل: ٦١].

على تقدير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢٠) نَقُول: (آلآلِهة خيرٌ أمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قرارًا؟).

{أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا}: {جَعَلَ} فعلٌ ماضٍ يَنْصِب مَفْعُولِين: الأول: الْأَرْض، والثاني: قرارًا، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{قَرَارًا} لا تمَيدُ بأهلها]، لا أحدَ يستطيع أن يجعلَ الْأَرْضَ قرارًا، لا سِيَّما وأنها مُرَكَّبَةٌ عَلَى الماءِ، فالماء محيطٌ بها من كُلّ جانبٍ، ولو أنك وضعتَ كُرَةً فِي ماء فإنها لا تَسْتَقِرّ، بل تَتَقَلَّب وتَتَمَوَّج، ولكِن الله ﷻ جعلَ هَذِهِ الْأَرْض كرةً فِي وسط ماء؛ لِأَنَّ البحار تمثِّل تقريبًا ثلاثة أرباع اليابسةِ، ومع هَذَا فإنها مُنْضَبِطَةٌ تمامًا لا تمَيد ولا تَتَقَدَّم إِلَى ناحيةٍ ولا تتأخّر عنها ولا تَتَدَحْرَج فِي هَذَا الماء، فجعلها الله ﷻ قرارًا، والقرارُ مَوْضِع الاستقرارِ.

فقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا تميد بأهلها]، والمَيَدَان معناه الاضطرابُ، ما أحد جعلَ الْأَرْضَ قرارًا إِلَّا اللهُ ﷻ، ولا يستطيعُ أحدٌ أنْ يقومَ بذلكَ، **ولِهَذَا إذا جاءتِ الزلازلُ لا يستطيع هَؤُلَاءِ بجميعِ قواهم أنْ يَمْنَعُوا رَجَّة الْأَرْض، بل ولا يَعْلَمُون متى تكون هَذِهِ إِلَّا إذا ظهرتْ بَوَادِرها ولو خَفِيَّة وتُعْلَم حينئذٍ بالآلاتِ الدقيقةِ، فإِذَنْ: لا أحدَ يستطيع أن يجعلَ الْأَرْض قرارًا بأهلها إِلَّا خالق الْأَرْض، وَهُوَ الله ﷻ** (٢١).

---

(٢٠) الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلّقًا على تفسير الجلالين.

(٢١) تفسير سورة النمل: (ص٣٥٢).

١٠-الله يُنذر الناسَ بالآيات الكونية من الزلازل ونحوها.

الله ﷻ يُنْذِر النَّاس بالآيَاتِ الكونيَّة إذا لم تُفِدْهُمُ الآيَاتُ الشَّرْعِيَّة، وهَذَا كثيرٌ، كالكسوفِ والزلازِلِ والفيضاناتِ والصواعِقِ والحاصِبِ منَ السَّمَاءِ بالبَرد أو غيرِه، كُلّ هَذَا إنذار بالآياتِ الكونيَّة إذا لم تُفِدِ الآيَات الشَّرْعِيَّة، وقد قيل:

الْعَبْدُ يُقْرَعُ بِالْعَصَا ... وَالحُرُّ تَكْفِيهِ الْإِشَارَةُ[٢٢]

فالمؤمنُ الواعي الحيُّ يَكْفِيه ما فِي الْقُرْآنِ مِنَ الآياتِ العظيمةِ، ولكِن المُعْرِض اللئيم لا يَنْفَع فِيهِ إلَّا العَصَا، إلَّا الآيَات الكونيَّة الَّتِي تُخْضِعُه بغيرِ إرادته، هَذَا إذا لم يَكُنْ أيضًا قلبُه ميّتًا للغاية، فإنْ كان قلبُه ميّتًا للغايةِ لم تَنفعْه حَتَّى الآيَاتُ الكونيَّة، قَالَ ﷻ: {وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا} قِطعًا من العذاب تَنزِل من السَّمَاءِ، {يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ} [الطور: ٤٤]، وعاد لما رَأَوهُ عَارِضًا مستقبِلَ أوديتهم {قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا} [الأحقاف: ٢٤]، وَفِي الوقتِ الحاضر إذا رَأَوْا هَذِهِ العقوباتِ يَقُولُونَ: هَذَا أمر طبيعيٌّ، من فَيَضَانات طبيعيَّة وبراكينَ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ منَ الكَلامِ الَّذِي يَدُلّ عَلَى موتِ القلوبِ[٢٣].

---

(٢٢) البيت ليزيد بن مفرغ الْحِمْيَري، وهو شاعر أموي متوفى ٦٩ هـ، ديوانه: (ص ٢١٥)، وجاء فيه:

فالهولُ يركبُه الفتى ... حَذَرَ المخازي والسآمه

والعبدُ يُقرعُ بالعصا .... والحرُّ تكفيه الملامَه

(٢٣) تفسير سورة النمل: (ص ٤٦٤).

١١-الواجب الاتعاظ بوقوع الزلازل، وألَّا تمرّ علينا مرّ الرياح.

انشقاق الأرض بالبراكين هذه تعتبر من عذاب الله ﷻ، فهي تشبه الزلازل، والزلازل من عقوبات الله، لا شك في هذا، فهي إنذار وتحذير للذين وقع بهم هذا البركان، وكذلك لغيرهم؛ لأنَّ الذي شقَّ الأرضَ حتى خرج منها هذا البركان قادرٌ على أن يشقّها في أيّ مكان، ولذلك يجب علينا ألا نقول: هذه أمور طبيعية، بل نقول: هذه أمور كونية قدريّة، قدرها الله ﷻ وأراد أن يُري العباد آياته حتى يتذكّروا ويرجعوا إلى الله.

لكن مع الأسف لقلة معرفتنا بالله ﷻ وخوفنا منه تمرّ بنا هذه الأشياء مر الرياح، وكأنها لا شيء، مع أن الرسول ﷺ كان إذا رأى سحابًا أو غيمًا صار يدخل ويخرج، ويتغيّر وجهه ويقول: (ما يُؤَمّنُنِي أن يكون فيه عذاب، قد عُذِّبَ قوم بالريح)[٢٤].

فالحاصل: أن هذه البراكين تعتبر عقوبةً من الله ﷻ وإنذارًا وتخويفًا، فعلى المؤمن أن يتّعظَ بها ويخافَ، كما أن الفتن التي تقع -أيضًا- بين الناس من حروب وغيرها هي -أيضاً- عقوبات، كما قال الله تعالى: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ} [الأنعام:٦٥]، وفي هذين قال النبي ﷺ: (أعوذ بوجهك) أي: أن ينالنا شيء من فوق أو من تحت؛ هذا لا يمكن التخلّص منه، قال: {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً} [الأنعام:٦٥] يجعلكم متفرّقين {وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ} [الأنعام:٦٥] فقال الرسول ﷺ: (هذه

---

(٢٤) البخاري: ٤٥٥١، ومسلم: ٨٩٩.

أهون)[٢٥] مع أنها عظيمة؛ كون الإنسان يقابل الرجل الذي هو مثله ويقتله، ويستبيح بذلك ماله وعرضه وأهله، هذه عظيمة.

لهذا نقول: يجب علينا أن نتعظ بما يحصل من آيات الله الكونية التي لا صنع لنا فيها ولا قدرة، وأن نتعظ بما يحدث بين الناس من الفتن، فإن الذي قدّرَ الفتن في أرض مطمئنة ساكنة من قَبْل قادر على أن يقدّرها في أرض أخرى، وينقل هذه الفتنة إلى أرض أخرى، فالواجب أن نتعظ بهذه الآيات وألا تمر علينا مر الرياح[٢٦].

---

(٢٥) البخاري: ٤٦٢٨.

(٢٦) لقاءات الباب المفتوح: (٣/ ٣٤٤).

١٢-باعث الحُسن من أحكام الله ﷻ الكونية كالزلازل ونحوها.

قوله: {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمَاً لِّقَوْمٍ يُوْقِنُوْنَ} [المائدة: ٥٠]، "مَن": اسم استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أحسن من الله حكمًا، وهذا النفي مُشَرّبٌ معنى التحدي، فهو أبلغ من قول: لا أحسن من الله حكما؛ لأنَّه متضمّنٌ للنفي وزيادة.

وقوله: "حكمًا": تمييز؛ لأنَّه بعد اسم التفضيل، وهو مبهم، فبَيّن هذا التمييز المبهم وميّزه، والحكم هنا يشمل الكوني والشرعي.

فإن قيل: يوجد في الأحكام الكونية ما هو ضارٌّ مثل الزلازل والفيضانات وغيرها، فأين الحُسْن في ذلك؟، أجيب: أن الغايات المحمودة في هذه الأمور تجعلها حسنة، كما يضرب الإنسان ولده تربية له، فيعد هذا الضرب فعلا حسنًا، فكذلك الله يُصيب بعضَ الناسِ بهذه المصائب لتربيتهم، قال تعالى في القرية التي قلب الله أهلها قردة خاسئين: {فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة:٦٦]، وهذا الحُسنُ في حكم الله ليس بيّنًا لكل أحد، كما قال ﷻ: {لقوم يوقنون}، وكلما ازداد العبد يقينًا وإيمانًا ازداد معرفة بحُسْنِ أحكام الله، وكلما نقص إيمانه ويقينه ازداد جهلًا بحُسْنِ أحكام الله، ولذلك تجد أهل العلم الراسخين فيه إذا جاءت الآيات المتشابهات بيّنوا وجه ذلك بأكمل بيان ولا يرون في ذلك تناقضًا، وعلى هذا، فإنَّه يتبيّنُ قوة الإيمان واليقين بحسب ما حصل للإنسان من معرفته بحُسْنِ أحكام الله الكونية والشرعية[٢٧].

---

(٢٧) القول المفيد على كتاب التوحيد: (٢/ ١٧٥)، ومجموع الفتاوى: (١٠/ ٧٥٦).

١٣-الزلازل بين الأسباب الشرعية والأسباب الطبيعية.

أ-أسبابُ الكسوفِ نوعان: نوع شرعي لا يُطَّلعُ عليه إلا بالوحي، ونوع طبيعي يَطَّلِعُ عليه علماء الفلك ويعرفونه ويقدّرونه بحساب لا يزيد دقيقة ولا ينقص دقيقة، وهذا السبب الفلكي معلوم عند العلماء، تكلّم فيه العلماء قديماً كشيخ الإسلام ابن تيمية(٢٨) وغيره، وبيّنوا أن هذه الأسباب معلومة

---

(٢٨) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (منهاج السنة النبوية: ٥/ ٤٤٤): "فهذه الآيات يُستدل بها على علم الخالق وقدرته ومشيئته وحكمته، وإثبات المادة التي خلق منها المطر والشجر والإنسان والحيوان مما يدل على حكمته.

ونحن لا نعرف شيئًا قط خُلق إلا من مادة، ولا أخبر الله في كتابه بمخلوق إلا من مادة.

وكذلك كون كسوف الشمس وغيره سببًا لبعض الحوادث هو مما دلّت عليه النصوص الصحيحة، ففي الصحاح من غير وجه عن النبي ﷺ أنه قال: "إنَّ الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله ﷻ يخوّف الله بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة". وقد ثبت عنه في الصحاح أنه صلّى صلاة الكسوف بركوع زائد في كل ركعة، وأنه طولها تطويلا لم يطوله في شيء من صلوات الجماعات، وأمر عند الكسوف بالصلاة والذكر والدعاء، والعتاقة والصدقة، والاستغفار.

وقوله: "يخوّف الله بهما عباده" كقوله ﷻ: {وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا} [سورة الإسراء: ٥٩] ، **ولهذا كانت الصلوات مشروعة عند الآيات عمومًا، مثل تناثر الكواكب والزلزلة وغير ذلك، والتخويف إنما يكون بما هو سبب للشر المخوف، كالزلزلة والريح العاصف. وإلا فما وجوده كعدمه لا يحصل به تخويف.**

فعُلم أنَّ الكسوف سبب للشر، ثم قد يكون عنه شر، ثم القول فيه كالقول في سائر الأسباب: هل هو سبب؟ كما عليه جمهور الأمة، أو هو مجرد اقتران عادة كما يقوله الجهمية؟

وهو ﷺ أخبر عند أسباب الشر بما يدفعها من العبادات، التي تُقَوّي ما انعقد سببه من الخير، وتدفع أو تُضعف ما انعقد سببه من الشر، كما قال: "إن الدعاء والبلاء ليلتقيان فيعتلجان بين السماء والأرض".

والفلاسفة تعترف بهذا، لكن هل ذلك بناء على أن الله يدفع ذلك بقدرته وحكمته، أو بناء على أن القوى النفسانية تؤثر؟ هذا مبني على أصولهم في هذا الباب.

يعرفها أهل الفلك وعلماء الهيئة -يعني: علماء الفلك- ويقدّرونها: ستكون في الساعة الفلانية، في اليوم الفلاني، أو في الليلة الفلانية؛ وذلك لأن جريان الشمس والقمر بتقدير العزيز العليم ﷻ لا يختلف، ولا يمكن أن يتقدّمَ أو يتأخَّرَ، قال الله ﷻ: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس: ٣٨- ٤٠].

هذه الأسباب الطبيعية قد لا يتكلّم عنها الوحي من الكتاب والسنة بكلام كثير؛ لأنها موكولة إلى العلم وتقدّمه، وليست ذات فائدة كبيرة.

أما السبب الثاني، وهو السبب الشرعي الذي لا يُطَّلع عليه إلا بالوحي فهذا هو المهم، وهذا السبب الشرعي لا يعرفه هؤلاء الفلكيُّون، بل هم من أجهل الناس به.

السبب الشرعي: هو عقوبات انعقدت أسبابها، ولكن الله ﷻ برحمته رفعها عن العباد وخوّفهم منها بهذا الخسوف، سواء في الشمس أو في القمر.

ويُحكى عن بطليموس أنه قال: "ضجيج الأصوات، في هياكل العبادات، بفنون اللغات، تَحْلُلُ مَا عقدته الأفلاك الدائرات"، وعن أبقراط أنه قال: "واعلم أن طبنا بالنسبة إلى طب أرباب الهياكل كطب العجائز بالنسبة إلى طبنا".

فالقوم كانوا معترفين بما وراء القوى الطبيعية والفلكية، وليس ذلك مجرد القوى النفسانية، كما يقوله ابن سينا وطائفة، بل ملائكةٌ ملء العالم العلوي والسفلي، والجن أيضًا لا يُحصي عددهم إلا الله، والله قد وكَّلَ الملائكةَ بتدبير هذا العالم بمشيئته وقدرته، كما دلت على ذلك الدلائل الكثيرة من الكتاب والسنة، وكما يستدل على ذلك أيضا بأدلة عقلية.

والملائكة أحياء ناطقون، ليسوا أعراضًا قائمة بغيرها، كما يزعمه كثير من المتفلسفة، ولا هي مجرد العقول العشرة والنفوس التسعة، بل هذه باطلة بأدلة كثيرة..."، وانظر: مجموع الفتاوى له: (٨/ ١٧٢و ٢٤/ ٢٥٤ و٢٥/ ١٩١ و٣٥/ ١٧٤)، والرد على المنطقيين: (ص٢٧١)، وغيرها.

فأسبابها: عقوبات انعقدت أسبابها، فكسفت الشمس أو القمر تخويفاً للعباد وإنذاراً لهم.

نحن لا يمكن أن نُدركَ هذا بحساب ولا بتفكير، فلا يُدرك هذا إلا عن طريق الوحي، والنبي ﷺ أخبرنا فقال: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوّف الله بهما عباده، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته)(٢٩) وكانوا في الجاهلية يعتقدون أن الشمس والقمر لا ينكسفان إلا لموت عظيم أو حياة عظيم، وسبحان الله الحكيم العليم صادف كسوف الشمس في عهد النبي ﷺ اليوم الذي تُوفي فيه إبراهيم رضي الله عنه، إبراهيم بن النبي ﷺ، فماذا قال الناس؟ قالوا: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فأبطل النبي ﷺ هذه العقيدة، أبطلها إبطالاً تاماً؛ لأن الأفلاك والعالم العلوي لا تتأثر بما يكون في العالم السفلي أبداً، فالأفلاك العليا لا تتأثر بما يكون في العالم السفلي، ولذلك تحدث الحروب والأوبئة وغيرها لكن هل تتأثر الأفلاك بذلك؟ لا(٣٠).

تكون الزلازل وتكون الحروب ويكون الفقر والأمراض وغيرها، لكن الشمس هي الشمس، والقمر هو القمر، والنجوم هي النجوم، وسيرها

---

(٢٩) البخاري: ١٠٤٨، وانظر مسلم: ٩١١.

(٣٠) قال شيخ الإسلام ابن تيمية مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٩٢): "وصناعة التنجيم التي مضمونها الأحكام والتأثير وهو: الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية، والتمزيج بين القوى الفلكي والقوابل الأرضية: صناعة محرمة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة؛ بل هي محرّمة على لسان جميع المرسلين في جميع الملل"، وقال أيضًا (المرجع السابق: ٣٥/ ١٧٢): "وهكذا المنجمون، حتى أني لما خاطبتهم بدمشق وحضر عندي رؤساؤهم، وبيّنتُ فساد صناعتهم بالأدلة العقلية التي يعترفون بصحتها، قال لي رئيس منهم: والله إنا نكذب مائة كذبة حتى نصدق في كلمة، وذلك أن مبنى علمهم على أن الحركات العلوية هي السبب في الحوادث، والعلم بالسبب يوجب العلم بِالْمُسَبَّبِ، وهذا إنما يكون إذا عُلم السبب التام الذي لا يتخلف عنه حكمه، وهؤلاء أكثر ما يعلمون -إن علموا- جزءًا يسيرًا من جملة الأسباب الكثيرة، ولا يعلمون بقية الأسباب، ولا الشروط ولا الموانع ....".

هو سيرها، بل الغمام هو الغمام، والمطر هو المطر، لكن الله ﷻ يُحدث في العالم العلوي ما يكون سبباً لتخويف العالم السفلي وهو الكسوف(٣١).

ب-الأمور الحسية يكل الله أمر معرفتها إلى الناس، وإلى تجاربهم حتى يُدركوا ما أودع الله في هذا الكون من الآيات الباهرة بأنفسهم.

أما الأسباب الشرعية، أو الأمور الشرعية التي لا يمكن أن تُدركها العقول ولا الحواس، فهي التي يبيّنها الله للعباد.

فإن قال قائل: كيف يجتمع السبب الحسي والشرعي، ويكون الحسي معلوماً معروفاً للناس قبل أن يقع، والشرعي معلوم بطريق الوحي، فكيف يمكن أن نجمع بينهما؟

فالجواب: أن لا تنافي بينهما؛ لأن الأمور العظيمة كالخسف بالأرض، والزلازل، والصواعق، وشبهها التي يحس الناس بضررها، وأنها عقوبة، لها أسباب طبيعية، يقدّرها الله حتى تكون المسببات، وتكون الحكمة من ذلك هي تخويف العباد، فالزلازل لها أسباب، والصواعق لها أسباب، والبراكين لها أسباب، والعواصف لها أسباب، لكن يقدّر الله هذه الأسباب من أجل استقامة الناس على دين الله، قال تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم: ٤١]، **ولكن تضيق قلوب كثير من الناس عن الجمع بين السبب الحسي والسبب الشرعي، وأكثر الناس أصحاب ظواهر لا يعتبرون إلا بالشيء الظاهر، ولهذا تجد الكسوف والخسوف**

---

(٣١) اللقاءات الشهرية: (٣/ ٣٠٧).

لما علم الناس أسبابهما الحسية ضعف أمرهما في قلوب الناس حتى كأنه صار أمرًا عاديًا.

ونحن نذكر قبل أن نعلم بهذه الأمور أنه إذا حصل الكسوف رعب الناس رعبًا شديدًا، وصاروا يبكون بكاءً شديدًا، ويذهبون إلى المساجد خائفين مذعورين، كما وقع ذلك للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لمّا كسفت الشمس أول مرة في عهده وكان ذلك بعد أن ارتفعت بمقدار رمح بعد طلوعها وأظلمت الدنيا، ففزع الناس، وفزع النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فزعاً عظيماً حتى إنه أُدْرِكَ بِرِدَائِهِ[٣٢]، أي: من شدة فزعه قام بالإزار قاصداً المسجد حتى تبعوه بالرداء، فارتدى به، وجعل يجره، أي: لم يستقر ليوازن الرداء من شدة فزعه، وأمر أن يُنادى: الصلاة جامعة[٣٣]؛ من أجل أن يجتمع الناس كلهم. فاجتمعت الأمة من رجال ونساء، وصلّى بهم النبي ﷺ صلاة لا نظير لها؛ لأنها لآية لا نظير لها.

آية شرعية لآية كونية، أطال فيها إطالة عظيمة، حتى إن بعض الصحابة -مع نشاطهم وقوتهم ورغبتهم في الخير- تعبوا تعباً شديداً من طول قيامه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وركع ركوعاً طويلاً، وكذلك السجود، فصلى صلاة عظيمة[٣٤]، والناس يبكون يفزعون إلى الله، وعُرضت على النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الجنة والنار في هذا المقام، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "فلم

---

(٣٢) مسلم: ٩٠٦.

(٣٣) البخاري: ١٠٥١، ومسلم: ٩١٠.

(٣٤) بوّب على ذلك الإمام البخاري (صحيحه: ١٠٥١) بقوله: " بَابُ طُولِ السُّجُودِ فِي الْكُسُوفِ"، وأسند تحته من قول عائشة رضي الله عنها أنّها قالت: "ما سجدت سجودًا قط كان أطول منها".

أرَيوماً قط أفظع من هذا اليوم"[٣٥]؛ حيث عُرضت النار عليه حتى صارت قريبة فتنحّى عنها، أي: رجع القهقهرى خوفًا من لفحها[٣٦]، سبحان الله!.

فالأمر عظيم! أمر الكسوف ليس بالأمر الهيّن، كما يتصوره الناس اليوم، وكما يصوره أعداء المسلمين حتى تبقى قلوب المسلمين كالحجارة، أو أشد قسوة -والعياذ بالله-.

يكسف القمر أو الشمس والناس في دنياهم: فالأغاني تسمع، وكل شيء على ما هو عليه؛ لا تجد إلا الشباب المُقبل على دين الله، أو بعض الشيوخ والعجائز، وإلا فالناس سادرون لاهون، ولهذا لا يتّعظ الناس بهذا الكسوف لا بالشمس ولا بالقمر مع أنه أمر هام، ويجب الاهتمام به[٣٧].

---

(٣٥) البخاري: ٤٣١، ومسلم: ٩٠٧.

(٣٦) مسلم: ٩٠٤.

(٣٧) الشرح الممتع: (٥/ ١٧٧).

١٤-استحضار شكر الله ﷻ عند حدوث الزلازل لمن عُوفي منها.

فإنني أذكركم -أيها الإخوة- بما أنعم الله علينا به في هذه البلاد من الرخاء والأمن والاستقرار، وغير ذلك مما لا يوجد في كثير من البلاد، وأنتم تعلمون أو كثير منكم يعلم ما يحدث في العالم من الشرور والفتن والكوارث؛ من الفيضانات والزلازل وغير ذلك.

ولا شك أن النعم تستوجب منا الشكر، لأننا إذا شكرنا الله عز وجل فقد قال الله تعالى: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم:٧] فبين الله ﷻ أنه بالشكر يزيد النعم، أما إذا قوبلت بالكفر فإن الله تعالى سيعذب هؤلاء الذين أنعم الله عليهم فبدلوا نعمة الله كفراً[٣٨].

---

(٣٨) اللقاءات الشهرية: (٣/ ٥٥٦).

١٥-كثرة الزلازل من أشراط الساعة.

كثرة الزلازل من أشراط الساعة[٣٩] أو كثرة الفتن من أشراط الساعة، والفتن الآن كما ترون كثيرة، وأشراط الساعة كثيرة، وهذه الزلازل كثيرة، والعلماء الذين هم العلماء حقاً قليلون أيضاً، فكثير من العلماء اليوم: إما علماء دولة، وإما علماء أمة، وقلَّ من يكون من علماء الملة[٤٠].

(٣٩) قال رسول الله ﷺ: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ وَهُوَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ، حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ الْمَالُ فَيَفِيضَ"، البخاري: ١٠٣٦.

(٤٠) لقاءات الباب المفتوح: (١/ ٣٤٨).

١٦-الزلازل خير بالنسبة لتقدير الله لها.

القدرُ كلُّهُ من الله قال الله ﷻ: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر:٤٩] فهل في قدر الله شر؟

الجواب: أن نقول: القدر إن كان المرادُ تقديرَ الله للشيء فليس بشرٍّ؛ لأن الله لا يقدر شيئاً إلا وهو خير، حتى المرض والموت والخوف والقتال والزلازل، هي بالنسبة لتقدير الله لها خير؛ لقوله ﷻ: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا} النتيجة؟ {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم:٤١].

لكن بالنسبة للمقدور: هو الذي فيه خير وشر، المقدور: المفعول المخلوق هذا هو الذي فيه الخير والشر، كقوله في القدر "خيره وشره"[٤١] المراد به: شر المقدور، لا شر القدر، أما القدر الذي هو تقدير الله فكله خير... ولهذا قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "والخير كله في يديك والشر ليس إليك"[٤٢].

---

(٤١) مسلم: ٨.

(٤٢) مسلم: ٧٧١، وللشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام متناثر حول هذا الحديث أذكر منه ما يناسب ذكر الزلازل قوله (فتح ذي الجلال والإكرام: ٢/ ٣٩): "ومن فوائد هذا الحديث: أن الشرَّ لا يُنسب إلى الله لقوله: "والشر ليس إليك"، وهنا إشكال بل إشكالات:

الأول: إذا قلنا: إن الشر ليس يُنسب إلى الله، فهل نقول: إن الشر غير مُقدر لله؟ قد يقول قائل: إن الشر غير مقدر لله؛ لأن الرسول ﷺ قال: "الشر ليس إليك"، فالمعاصي والفساد والقحط والجدب ليس من تقدير الله؛ لأنه شر، والشر ليس إليه.

الإشكال الثاني: كيف تجمع بين هذا وبين قول النبي ﷺ في الإيمان بالقدر: "أن تُؤمن بالقدر خيره وشره"، والقدر من الله ﷻ خيره وشره، فأثبتَ أن في قدر الله شرًّا.

الجواب: أما الأول فنقول: إن النبي ﷺ قال: "الشر ليس إليك"، ولم يقل: الشر ليس منك، أي: لا يُنسب إليه الشر، فيُقال: إن الله شرير ﷻ -حاشاه وكلا-، وفرق بين العبارتين، وإذا عرفتَ الفرق

نسأل الله تعالى أن يقدر لنا ولكم ولجميع المسلمين، ما فيه الخير والصلاح(٤٣).

بين العبارتين تبيَّن أنَّه لا حجة لبعض القدرية الذين يقولون: إن اللهَ مقدّرٌ للخير وليس مقدِّرًا للشر، ويستدلون بهذا الحديث.

نقول: أمعنوا النظر، افهموا العبارة: "الشر ليس إليك" غير "الشر ليس منك".

أما الجمع بين هذا الحديث وحديث الإيمان بالقدر: "أن تؤمن بالقدر خيره وشــره" فنقول: المراد بالشر الذي في الإيمان بالقدر: شر المخلوقات المفعولات لا شر الخالق الفاعل، ففعل الله ليس فيه شر؛ الشر في المفعولات يعني: في المخلوقات؛ يعني: مثلًا خلق الله ﷻ سِباعًا وثعابين وعقارب كل هذه شرور بالنسبة للإنسان.

يخلق الله تعالى الزلازل والصواعق والفيضانات كلها شر بالنسبة للإنسان، لكن بالنسبة لإيجاد الله لها وفعله لها هل هي شر؟ لا؛ والله هي خير عظيم لها فوائد جمة، أشار الله تعالى إلى بعضها في القرآن، قال الله تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَــادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَــبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم: ٤١]، والرجوع إلى طاعة الله خير عظيم".

(٤٣) لقاءات الباب المفتوح: (٤/ ٣٥٦).

١٧-آيات الأرض من الزلازل ونحوها:

عظة للموقنين وحسرة على المُنكرين.

أ-قال الله ﷻ: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ} [الذاريات:٢٠]، لم يبيّن الله ﷻ هذه الآيات بل جاءت مُنَكَّرة ليشمل كلَّ آيةٍ في الأرض، سواء كانت الآيات فيما يحدث فيها من الحوادث، أو كانت في نفس طبيعة وتركيب الأرض، فإن فيها آياتٍ عظيمة.

{وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ} من حيث التركيب، كما قال الله ﷻ: {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ} [الرعد:٤] فتجد الحجرَ الواحدَ يشتمل على عدَّةِ معادنَ، وهو حجرواحد، وترى أحياناً في الجبال {جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ} [فاطر:٢٧].

وتجد فيها الأرضَ الليّنةَ، والرخوة، والصلبة إلى غير ذلك مما يعرفه علماء الجيولوجيا من الآيات العظيمة. **فيها آيات من جهة الحوادث التي تحدث فيها، من الزلازل والبراكين وغيرها**. فيها آيات -أيضًا- من جهة طبيعة الجو، من حرٍّ وبردٍ، ورياحٍ عاصفةٍ، ورياح باردة، ورياح دافئة وغير ذلك مما إذا تأمّله الإنسان عرف بذلك قدرة الله ﷻ من جهة، وعرف حكمته ورحمته -أيضًا- من جهة أخرى؛ لأن آيات الله ﷻ يتبصّر بها الإنسان لا من حيث القدرة والعظمة فقط، بل حتى من حيث الحكمة والرحمة؛ لأنَّ كلَّ شيء تجده مناسباً لمكانه وزمانه، وكل شيء تجده من آثار رحمة الله.

المهمُّ أنَّ كلمةَ (آيات) نجد أنها نكرةٌ عامةٌ لكل ما يحدث في الأرض من آيات، ولكل ما فيها من طبيعتها وتركيبها وغير ذلك.

(آياتٌ للموقنين) أي: لمن أيقن بوجود الله ﷻ وعظمته وجلاله، أما من شك -والعياذ بالله- فإنَّه لن ينتفع بهذه الآيات، بل قد تكون هذه الآيات ضررًا عليه، فإنَّ الآياتِ الكونيةَ أو الشرعيةَ قد تكون خيرًا للإنسان وقد تكون شرًّا، واستمع إلى قول الله تبارك وتعالى: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ} أي: من القرآن {فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة:١٢٤-١٢٥].

كذلك الآيات الكونية، من الناس من ينتفع بها ويستدل بها على ما فيها من آيات الله ﷻ، ومن الناس من يكون بالعكس يؤدي ما يجده من الآيات إلى الإلحاد -والعياذ بالله-، ولهذا قال: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ} [الذاريات:٢٠] أي: ليس لكل إنسان بل للموقن، أما الشاك والمتردّد والكافر فإنه لن ينتفع بهذه الآيات[٤٤].

ب-قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤٥]: [{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} يُصَدِّقونَ بتوحيدِ اللَّهِ وقُدرَتِهِ؛ لأنهم المنْتَفِعُونَ بِهَا]: هذه الآياتُ قَيَّدهَا اللَّهُ بأنها {لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}؛ احْتِرَازًا مِنَ القومِ الذين لا يؤمنون، فالقَومُ الذين لا يؤمنونَ وإنْ كانَتْ الآياتُ أمامَهُم لا ينْتَفِعُونَ بها، فليست لهم آياتٌ، ولهذا قال اللَّه ﷻ: {وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس: ١٠١].

وهل نَعلَمُ في الكلامِ شَيئًا أعْظَمَ آيةٍ من كلامِ اللَّهِ؟

---

(٤٤) لقاءات الباب المفتوح: (٦/ ٥٣٨).

(٤٥) الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلّقًا على تفسير الجلالين.

الجواب: لا نعلم، وهو الواقع، ومع ذلك من ليس بمؤمن إذا تُلي عليه القرآن قال: {أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}، ولذلك إذا رأيتَ من نفسك أنك لا تتأثر بالقرآن فاتَّهم نفسك؛ لأن الله ﷻ لم يقل عن أحد إنه لا ينتفع بالقرآن، إلا عن المكذبين الذين لا يرون في القرآن شيئًا يأخذ بلبّهم ورَوعِهِمْ، وهذه المسألة نسأل الله النجاة منها؛ لأن كثيرًا من الناس يقرؤون هذا القرآن ولكنه لا يهز مشاعرهم، وهذا خطير جدًّا على الإنسان، فيجب على الإنسان أن يتَّهمَ نفسه بهذا الأمر حتى يُعدِّلَ ما مال منه ويقوّم ما اعوجَّ.

وعلى هذا نقول: إن الآيات الكونية والشرعية لا ينتفع بها إلا المؤمن، **أما غير المؤمن فلا ينتفع بآيات الله؛ لأنها تمر عليه وكأنها أمر عادي أو بمقتضى الطبيعة، فالزلازل والبراكين التي تُصيب الناس يقولون: هذه براكين عادية وليست بشيء، والرياح العاصفة العظيمة التي تدمر المحاصيل والأشجار، وكذلك ما يحصل من الأمطار المغرقة؛ كل هذه الآيات يقولون: إنها ظواهر طبيعية، وكأنها ليست عقوبة من الله عز وجل، فلم ينتفعوا بهذه الآيات.**

والآن بدؤوا في الكسوف، يقولون: هذه أسباب ظاهرة، ونسأل الله السلامة، فهم ينشرونها قبل أن تقع لأجل أن تأتي إلى الناس وقد اطمأنوا إليها واستقرت في نفوسهم فلا ترعبهم ولا تخوفهم، بينما نجد النبي ﷺ يقول: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده"[٤٦]، وهؤلاء جعلوها كأنها هلال عيد، حتى إن بعضهم خاطبنا بذلك وقال:

(٤٦) تقدّم تخريجه: (ص٢٦).

نحن نُخبر الناس لأجل أن يتهيّئوا ويترقّبوا لذلك، حتى يأتي الكسوف وهم مستعدون له، كأنه هلال عيد يخرج حتى يخرجوا إلى المصلى، وهذا غلط. وأنا أذكر والمتقدّم في السن يذكر: أنَّ الناسَ كانوا إذا جاء الكسوف يحصل عندهم من الخوف والانزعاج والفزع كما أمر النبي ﷺ به: الفزع إلى المسجد والبكاء، أما الآن -فنسأل الله العافية- ترى بعض الناس يُشاهد الكسوف، وعنده آلات لهو تُغَنِّي وما أشبه ذلك؛ المهم أن هذه الآيات لا ينتفع بها إلا المؤمن(٤٧).

(٤٧) تفسير سورة العنكبوت: (ص١١١).

١٨-عجائب قدر الله في تقدير الزلازل بلحظة واحدة.

قال تعالى: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [القمر:٥٠] أي: ما أمرنا فيما نُريد أن يكون {إِلَّا وَاحِدَةٌ} أي: مرة واحدة بدون تكرار، {كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ}: بدون تأخر، سبحان الله! أمر الله عز وجل واحد لا تكرار، وبسرعة فورية أسرع ما يمكن أن يكون: كلمحٍ بالبصر، {كُن فَيَكُونُ} واشتهر بين العوام أنهم يقولون: (يا من أمره بين الكاف والنون) وهذا خطأ، ليس أمر الله بين الكاف والنون، بل بعد الكاف والنون؛ لأن الله قال: {كُنْ فَيَكُونُ} وهذا بعد كن، فقولهم: بين الكاف والنون خطأ، يعني: ما تمَّ الأمر بين الكاف والنون، لكنه بعد الكاف والنون فوراً {كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ}.

وإن شئتَ أن ترى عجائب ذلك، فانظر إلى الزلازل تصيب مئات القرى، أو آلاف القرى وبلحظةٍ واحدة تعدمها، ولو جاءت المعاول و (الدركترات) والقنابل ما فعلت مثل فعل لحظة واحدة من أمر الله ﷻ، واسأل الخبراء بالزلازل تجد الجوابَ.

انظر إلى ما هو أعظم من ذلك، الموتى في قبورهم والحشرات والحيوانات، وكل الأشياء، تبعث يوم القيامة بكلمةٍ واحدة كما قال ﷻ: {إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ} [يس:٥٣] -أسأل الله أن يجعلني وإياكم ممن يحضر إلى الخير- {صَيْحَةً وَاحِدَةً} فقط {فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ} كلهم، {لَدَيْنَا} أي: عندنا، {مُحْضَرُونَ}، فصدق الله ﷻ وعده، {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [القمر:٥٠] أي: مثل لمح البصر(٤٨).

---

(٤٨) لقاءات الباب المفتوح: (٨/ ٤٢١).

١٩-قهر الله ﷻ للأسباب الدنيوية والقوى البشرية فيما يُقدّره من زلازل ونحوها.

قال الله ﷻ: {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}، ففي هذه الآية تقدّم المعمول في قوله ﷻ: {وَعَلَى اللَّهِ} على عامله، وتقديم المعمول على العامل يفيد الحصر والاختصاص، فلا يجوز أن نعتمد على أحد غير الله أبدًا، وأن نعلّقَ رجاءنا بغير الله، وأن نعلم أن الأسباب إنما هي أسباب محضة ليس لها في تغيير الأمر الواقع شيء إلا بأمر الله ﷻ.

وأنا أضرب أمثلة في أنَّ الأسبابَ أسبابٌ محضةٌ، وأنَّ المسبب هو الله ﷻ.

المثال الأول: النار محرقة لا شك، لكن في يوم من الأيام جعلها الله غير محرقة لما أُلقي إبراهيم عليه السلام في النار، قال الله تعالى: {كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ} [الأنبياء: ٦٩] انتفت الحرارة وانتفى الإحراق فسلم ولم يحترق، ولم تصبه حرارة النار، بل كانت برداً، حتى إن بعض العلماء ذكر أن الله ﷻ لو قال: برداً على إبراهيم، ولم يقل: {سلاماً} لأهلكته ببردها، لكن الله ﷻ قال: {كُونِي بَرْداً وَسَلاماً}[٤٩]، وهذا السبب المُحرق الذي يعلم الجميع أنه محرق صار غير محرق، إذن فهل الأسباب مؤثرة بذاتها، أم بما أودع الله فيها من القوى؟

والجواب: أن نقول: الثاني بلا شك.

---

(٤٩) هذا وارد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حيث قال: "لو لم يُتبع بردها سلامًا لمات إبراهيم من شدّة بردها"، انظر: تفسير الطبري: (١٦/ ٣٠٦).

فما بال البعض يعتمد على غير الله؟!، وعلى هذا لا يجوز الاعتماد على غير الله ﷻ إلا باعتقاد أنه سبب فقط، قد يتخلّف مسببه؛ لأن السبب قد يوجد فيه مانع.

المثال الثاني: ما وقع في جيش النبي ﷺ وهو أعظم جيش وأفضل جيش وأحق جيش بالنصر، ولكن لما اعتمدوا على كثرتهم وقع الخذلان، قال الله ﷻ: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ} [التوبة: ٢٥].

وكان عدد جيش النبي ﷺ يوم حنين اثني عشر ألفاً، وكان عدوهم ثلاثة آلاف وخمس مئة، ولهذا قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: "لن نُغلب اليوم من قلة"(٥٠).

فهذا الجيش الذي قائده أعظم قائد وهو رسول الله ﷺ وجيشه أعظم جيش، وأحق جيش بالنصر، ومع ذلك لما أعجبتهم كثرتهم لم ينصروا حتى تداركهم الله ﷻ بعفوه وأنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين.

المثال الثالث: ما وقع لنبي الله سليمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حينما قال: "لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تلد كل امرأة غلاماً يقاتل في سبيل الله، فقيل له: قل: (إن شاء الله)، فلم يقل: (إن شاء الله)، لأنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عازم على هذا الفعل، فطاف على تسعين امرأة ولم يلد منهن إلا امرأة واحدة ولدت نصف إنسان.

---

(٥٠) يُنظر: مرويات غزوة حنين وحصار الطائف لإبراهيم قريبي: (١/ ١٣٥)، ففيه مبحث عمّن قال ذلك.

قال نبينا محمد ﷺ: "لو قال: إن شاء الله لم يحنث، وكان دَرَكًا لحاجته وقاتلوا في سبيل الله"(٥١).

فالإنسان يجب عليه أن لا يعتمد في جميع أموره إلا على الله وحده، لهذا من اعتمد على قوته فقط فإنه سبب لخذلانه، فالواجب ألا نُعلِّق رجاءنا بمخلوق، بل يجب ألا نعلق الرجاء إلا بالله وحده لا شريك له، قال سبحانه: {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}.

وما أهون الخلق على الله عزوجل إن هم عصوه ولنتأمَّل فيما يقع من الزلازل وما تدمره من بلدان كثيرة في لحظة واحدة، فلا أحد فوق الله عزوجل، فالله فوق كل شيء، قال سبحانه: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} [الأنعام: ١٨ و٦١]، **فالواجب على مَن سمع منْ يعتمد على القوى البشرية فقط، أن يُبيِّن له أن فعله حرام، وأنه خلل في عقيدة التوكل على الله ﷻ، فالقوى البشرية ما هي إلا سبب قد يؤدي مفعوله وقد لا يؤدي، فلا يجوز الاعتماد إلا على الله ﷻ وحده حتى يتحقق النصر بإذن الله ﷻ**(٥٢).

---

(٥١) البخاري: ٦٧٢٠ ومسلم: ١٦٥٤.

(٥٢) مجموع الفتاوى: (٢٥/ ٥٣٥).

٢٠-اطمئنان المؤمن بما يحدثه الله ﷻ من الزلازل ونحوها.

قال اللَّهُ ﷻ: {خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ} [العنكبوت: ٤٤].

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من فوائد هذه الآية الكريمة ما نصّه: "اطمئنان المؤمن بما يحدثه الله في السموات والأرض، وجه ذلك: قوله سبحانه وتعالى: {بِالْحَقِّ} فإذا عرف المؤمن أنَّ ما حدث من جوعٍ ومرض وزلازل وفيضانات أنه بالحق اطمأن ورضي وسلم، ولا راحة في الحقيقة للإنسان إلا بهذا، أي: بالإيمان بقضاء الله وقدره وأنه حق، وإلا فإنه سيتكدّر؛ لأنه ما من ساعة تمر إلا وسيجد الإنسان فيها ما يسوؤه إما في نفسه أو أهله أو صحبه أو بلده، أو البلاد الإسلامية عامة[٥٣].

---

(٥٣) تفسير سورة العنكبوت: (ص٢٣١).

٢١-التوفيق بين كون الزلازل مفسدة للأرض وبين أنَّ الله لا يفعل إلا الأصلح.

ولله ﷻ أن يفعل ما شاء، كما قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [الحج: ١٨]، لكن ما كان من مقتضى حكمته وكماله فلابد أن يكون، وما خالف مقتضى الحكمة والكمال فإنه مستحيل، فمثلاً تعذيب المطيع هذا مستحيل؛ لأن مقتضى الحكمة أن يثاب المحسن على إحسانه، لأنه لو عذب المحسن لكان فيه إخلاف لوعده، والله ﷻ لا يخلف الميعاد؛ لأنه ليس عاجزاً وليس كاذباً ﷻ، بل هو الصادق القادر فلا يخلف الميعاد.

إذاً هذا الذي عمل صالحاً يجازيه الله ﷻ بالأصلح وجوباً بمقتضى الحكمة والكمال؛ لأنه ﷻ وعد بأنه يثيب الطائع، فيجب عليه ليس بإيجابنا بل بإيجابه هو على نفسه.

فإن قال قائل: إذا قلنا: إنه يجب عليه فعل الأصلح أو الصلاح، وَرَدَ علينا خلق إبليس، وأنه لو سَلِمَ الناسُ من إبليس لكانوا في خير وكان أصلح لهم، والله ﷻ قد خلقه؟

فالجواب على هذا الإشكال أن نقول: إنَّ خلق إبليس لا شك أنه شر، لكن وجود شر يُصارَع بخير هذا أصلح؛ لأنَّ الناس لو كانوا على طريقة واحدة وليس هناك ما يضلّهم لم يتبيّن الصادق من غير الصادق؛ لأنه ليس هناك سبيل إلى أن يكون الإنسان فاجراً.

فلو لم يوجد إبليس، ولا نفس أمّارة بالسوء، ما كان هناك طريق يمكن أن يسلكه الإنسان فيكون فاجراً حتى يُعرف حسن نيته من سوء نيته، فالحكمة إذاً أن يخلق إبليس، بل والأصلح أن يخلق إبليس؛ لأنه لا يمكن

امتحان العبد ومعرفة كونه عبداً خالصاً لله أو عابداً لهواه إلا بوجود إبليس والشر والنفس الإمارة بالسوء، إذاً هذا ليس صلاحاً في نفسه ولا أصلح في نفسه ولكن لغيره.

وكذلك الجدب -وهو متعلّق بالكون- فإنه ولا شك فساد للناس، وتعطّل مصالح، وهلاك مواشٍ، وربما هلاك أنفس أيضًا، والله ﷻ يُقدّر الجدب، فإذا قال قائل: كيف يستقيم هذا مع قولنا: إن الله لا يفعل إلا الأصلح أو الصلاح؟

ويجاب على ذلك بأنَّ هذا سيئ من وجه وصالح من وجه، فالجدب مثلاً سيئ، لكن الله يقدّره لأمر أعظم وأنفع للعباد من الخصب، فالله تعالى يقول: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم: ٤١]، فهذا صلاح لغيره، والله بيّن الحكمة منه فقال: {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}.

ولو بقي الناس قد بُسط لهم الرزق لكان الأمر كما قال الله ﷾: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} [الشورى: ٢٧]، ومعلومٌ أنَّ بقاءَ الناس على فسوقهم وعتوهم وضلالهم مفسدة عظيمة أعظم من مفسدة الجدب، فإذا جاءت مفسدة الجدب من أجل استقامة الناس على دين الله صار وجود الجدب صلاحاً عظيماً.

وفعل الله ﷻ -وحاشاه من ذلك ﷾- الأسوأ مع إمكان الصلاح منافٍ للحكمة، لكن قد يُخطئ الإنسان في الفهم فيظن أن الأصلح خلاف كذا، ولكن الأمر خلاف ما ظن، فيظن في هذه الحال أن الله فعل الأسوأ وليس كذلك، لكن لو كان الأسوأ حقيقة وتقديرًا وتصورا فإننا نقول: إن الله لا

يمكن أن يفعله؛ لأنّه منافٍ للحكمة، والله ﷻ حكيم لا يمكن أن يفعل إلا ما فيه الخير: إما بذاته وإما بغيره.

قال ﷻ: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ} [الأنعام: ٦٥]، **فكلُّ هذه في ظاهرها مفاسد ومساوئ: فالعذاب من فوقنا حاصب من السماء أو من تحت أرجلنا: كالزلازل والبراكين، {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ} يعني القتال والنزاع فيما بينكم، وكل هذه في ظاهرها سيئة، ولكن فيها مصلحة عظيمة، وهي أن نتوب إلى الله ونرجع إليه حتى نتقي هذه العقوبات.**

والنبي ﷺ لما نزلت هذه الآية: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ}، قال: (أعوذ بوجهك)، وفي الثانية: {أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ}، قال: (أعوذ بوجهك)، وفي الثالثة: {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ}، قال: (هذه أهون، أو هذا أيسر)[٥٤] ولهذا وقعت - في الأمة - الثالثة، أما الأولى والثانية فلم تقع في الأمة على سبيل العموم، وربما يوجد في أجزاء من الأرض زلزال أو ما أشبه ذلك، ولكنها ليست عامة[٥٥].

---

(٥٤) سبق تخريجه: (ص ٢٢).

(٥٥) شرح العقيدة السَّفارينيَّة: (ص ٣٤٥ باختصار).

٢٢-ابتلاء الله بالزلازل ونحوها بين أهل الإيمان وأهل الكفر، وتقدّمهم الحضاري أو تخلّفهم على ضوء ذلك.

سُئل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يدّعي بعض الناس: أنَّ سببَ تخلّف المسلمين هو تمسّكهم بدينهم، وشبهتهم في ذلك، أن الغرب لما تخلّوا عن جميع الديانات وتحرّروا منها وصلوا إلى ما وصلوا إليه من التقدّم الحضاري، وربّما أيّدوا شبهتهم بما عند الغرب من الأمطار الكثيرة والزروع، فما رأي فضيلتكم؟

الجواب: هذا الكلام لا يصدر إلا من ضعيف الإيمان، أو مفقود الإيمان، جاهل بالتاريخ، غير عالم بأسباب النصر، فالأمة الإسلامية لمَّا كانت متمسّكة بدينها في صدر الإسلام كان لها العزة والتمكين، والقوة، والسيطرة في جميع نواحي الحياة، بل إن بعض الناس يقول: إن الغرب لم يستفيدوا ما استفادوه من العلوم إلا ما نقلوه عن المسلمين في صدر الإسلام، ولكن الأمة الإسلامية تخلّفت كثيرًا عن دينها، وابتدعت في دين الله ما ليس منه: عقيدة، وقولاً، وفعلاً، وحصل بذلك التأخّر الكبير، والتخلّف الكبير.

ونحن نعلم علم اليقين ونُشهد الله ﷻ أنَّنا لو رجعنا إلى ما كان عليه أسلافنا في ديننا، لكانت لنا العزة، والكرامة، والظهور على جميع الناس، ولهذا لما حدَّثَ أبو سفيان ﵁ هرقل ملك الروم -والروم في ذلك الوقت تعتبر دولة عظمى- بما عليه الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأصحابه، قال: (إن كان ما تقول حقًّا فسيملك ما تحت قَدَمَيَّ هاتين)، ولما خرج أبو سفيان

وأصحابه من عند هرقل، قال: (لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ)(٥٦).

وأما ما حصل في الدول الغربية الكافرة الملحدة من التقدم في الصناعات وغيرها، فإن ديننا لا يمنع منه، لو أننا التفتنا إليه، لكن مع الأسف ضيّعنا هذا وهذا: ضيّعنا ديننا، وضيّعنا دنيانا، وإلا فإن الدين الإسلامي لا يعارض هذا التقدم، بل قال الله ﷻ: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [الأنفال:٦٠]، وقال ﷻ: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ} [الملك: ١٥]، وقال ﷻ: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً} [البقرة: ٢٩]، إلى غير ذلك من الآيات التي تُعلن إعلانًا ظاهرًا للإنسان أن يكتسب ويعمل وينتفع، لكن لا على حساب الدين.

فهذه الأمم الكافرة هي كافرة من الأصل، دينها الذي كانت تدّعيه دينٌ باطلٌ، فهو وإلحادها على حد سواء، لا فرق، فالله ﷻ يقول: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} [آل عمران: ٨٥]، وإن كان أهل الكتاب من اليهود والنصارى لهم بعض المزايا التي يخالفون غيرهم فيها، لكن بالنسبة للآخرة هم وغيرهم سواء، ولهذا أقسم النبي ﷺ أنَّه لا يسمع به من هذه الأمة

(٥٦) البخاري: ٧، مسلم: ١٧٧٣، وقوله: "أَمِرَ أمْر ابن أبي كَبْشَة"، أي: كثر وارتفع شأنه، قال ابن الأثير (النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤/ ١٤٤): "كان المشركون يَنْسُبُون النبي ﷺ إلى أبي كبشة، وهو رجل من خُزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان، وعَبَد الشِّعْرَى العَبُورَ، فلما خالفَهم النبي ﷺ في عبادة الأوثان شبّهوه به"، وبنو الأصفر هم الروم، قال ابن الأثير (المرجع السابق: ٣/ ٣٧): " يعني الروم، لأنَّ أباهم الأول كان أصفر اللون. وهو روم بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم".

يهودي ولا نصراني ثم لا يتبع ما جاء به إلا كان من أصحاب النار [٥٧]، فهم في الأصل كافرون، سواء انتسبوا إلى اليهودية، أو النصرانية، أم لم ينتسبوا إليها.

وأما ما يحصل لهم من الأمطار وغيرها فهم يصابون بهذا ابتلاءً من الله ﷻ وامتحاناً، وتُعجّل لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، كما قال النبي ﷺ لعمر بن الخطاب ﷺ وقد رآه قد أثّر في جنبه حصير، فبكى عمر وقال: يا رسول الله فارس والروم يعيشون فيما يعيشون فيه من النعيم، وأنت على

---

(٥٧) ونصّ الحديث: "والذي نفس مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار"، مسلم: ١٥٣، قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ موضّحًا هذا الحديث وما جاء في معناه (تفسير سورة الزخرف: ص ٤٩): "الإنسان معذور بالجهل إذا لم تبلغه الرسالة، وهذا له أدلة:

منها: قول الله ﷻ: {إِنَّا أَوْحَينَا إِلَيكَ كَمَا أَوْحَينَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَينَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيمَانَ وَآتَينَا دَاوُودَ زَبُورًا . وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا . رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [النساء: ١٦٣ - ١٦٥].

ومنْهَا: قَولُهُ تعَالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥].

ومنْهَا: قَولُهُ تعَالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إلا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ} [القصص: ٥٩]، والأدلة على هذا كثيرة.

وقال النبي ﷺ: "والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بما جئت به إلا كان من أصحاب النار"، فقال: "لا يسمع بي أحد".

فإن قال قائل: وهل يُشترط مع بلوغ الرسالة أن يفهمها المخاطب؟

فالجواب: نعم، يُشترط هذا؛ لقول الله ﷻ: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} [إبراهيم: ٤]، أيُّ فَائدَةٍ في رسول يأتي إلى قوم لا يعرفون لغته، وهو لا يعرف لغتهم؟!، لا فائدة تحصل، والله ﷻ أرحم وأحكم من أن يعذب قومًا بدون أن يفهموا ما جاءت به الرسل.

يبقى النظر إذا كان الإنسان مسلمًا ولكنه يقوم بأعمال شركيّة لا يظن أنها شرك، فهل يحكم بشركه؟ فالجواب: لا، حتى تقوم عليه الحجة، فإذا قامت عليه الحجة، فحينئذ نحكم بشركه".

هذه الحال!، فقال ﷺ: (يا عمر هؤلاء قوم عُجِّلَتْ لهم طيباتُهم في حياتهم الدنيا، أما ترضى أن تكون لهم الدنيا، ولنا الآخرة)[٥٨].

ثم إنهم يأتيهم من القحط، والبلايا، والزلازل، والعواصف المدمرة ما هو معلوم، ويُنشر دائماً في الإذاعات، وفي الصحف، وفي غيرها، ولكن من وقع السؤال عنه أعمى، أعمى الله بصيرته فلم يعرف الواقع، ولم يعرف حقيقة الأمر، ونصيحتي له أن يتوب إلى الله ﷻ عن هذه التصوّرات قبل أن يفاجئه الموت، وأن يرجع إلى ربه، وأن يعلم أنه لا عزة لنا، ولا كرامة، ولا ظهور، ولا سيادة إلا إذا رجعنا إلى دين الإسلام، رجوعًا حقيقيًّا يصدقه القول والفعل، وأن يعلم أن ما عليه هؤلاء الكفار باطل ليس بحق، وأن مأواهم النار، كما أخبر الله بذلك في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، وأن هذا الإمداد الذي أمدّهم الله به من النعم ما هو إلا ابتلاء وامتحان وتعجيل طيبات، حتى إذا هلكوا وفارقوا هذا النعيم إلى الجحيم ازدادت عليهم الحسرة والألم والحزن، وهذا من حكمة الله ﷻ بتنعيم هؤلاء، على أنهم كما قلتُ: لم يسلموا من الكوارث التي تصيبهم من الزلازل، والقحط، والعواصف، والفيضانات وغيرها، فأسأل الله لمن وقع عنه السؤال الهداية والتوفيق، وأن يرده إلى الحق وأن يبصرنا جميعاً في ديننا إنه جواد كريم[٥٩].

---

(٥٨) البخاري: ٢٤٦٨ و٤٩١٣، مسلم: ١٤٧٩.

(٥٩) فتاوى أركان الإسلام: (ص١٨٧).

٢٣-استذكار الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما وقع في عصره من زلزال إيران واليمن.

أنا أذكر قبل سنوات حدث زلزال في إيران دمر خمسًا وعشرين مدينة، وأكثر من مائتين قرية، وأكثر من خمسة وعشرين ألفا ماتوا في لحظة، والذي حصل في اليمن قبل عدة سنوات قال الذين وصفوه: ما حسبنا إلا أن القيامة قامت حتى خرج الناس والأم ذاهلة عن طفلها فزعا مع أنها أقل من ثانية، هذا فعل الله عز وجل إذا شاء، هذه الزلزلة من آيات الله يخوف الله بها عباده[٦٠].

(٦٠) فتح ذي الجلال والإكرام: (٢/ ٤٣٤).

٢٤-من عجائب زلزال مصر.

المسألة فطرية لا تحتاج إلى دراسة وتعب حتى يقرّ الإنسان أن الله في السماء، بمجرد الفطرة يرفع الإنسان يديه إلى ربه إذا دعا ويتَّجه قلبه إلى السماء، واليد تُرفع أيضاً نحو السماء.

بل حتى البهائم ترفع رأسها إلى السماء، **حدَّثني أحد الأساتذة في الجامعة عندنا عن شخص اتصل عليه من القاهرة إبَّان الزلزلة التي أصابت مصر يقول: إنه قبل الزلزلة بدقائق، هاجت الحيوانات في مقرها الذي يسمونه: (حديقة الحيوانات) هاجت هيجاناً عظيماً، ثم بدأت ترفع رأسها إلى السماء.**

سبحان الله، بهائم تعرف أن الله في السماء، وأوادم من بني آدم ينكرون أن الله في السماء -والعياذ بالله-.

فالبهائم تدري وتعرف، نحن نشاهد بعض الحشرات إذا طردتها أو آذيتها وقفت ثم رفعت قوائمها إلى السماء نشاهدها مشاهدة، فهذا يدل على أن كون الله ﷻ في السماء أمر فطري لا يحتاج إلى دليل أو تعب أو عنت، حتى الذين ينكرون أن الله في السماء -نسأل الله لنا ولهم الهداية- لو جاءوا يدعون أين يرفعون أيديهم؟، إلى السماء، فسبحان الله! أفعالهم تكذّب عقيدتهم، هذه العقيدة الباطلة الفاسدة التي يُخشى عليهم من الكفر بها[٦١].

---

(٦١) شرح رياض الصالحين: (٣/ ١٤٣).

٢٥-وقوع الزلازل على ضوء قول الله ﷻ:

{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ} [الحديد: ٢٢].

"فَما أصابَ الإنْسانَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَما أخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصيبَهُ"، إذا آمنتَ بهذه الجملة؛ اطمأننت: ما أصاب الإنسان؛ لم يكن ليخطئه أبدًا.

ومعنى "ما أصاب": يحتمل أن المعنى: ما قُدِّر أن يصيبَه؛ فإنَّه لن يخطئَه، ويحتمل أنَّ ما أصابه بالفعل لا يمكن أن يخطئه، حتى لو تمنّى الإنسان، وهما معنيان صحيحان لا يتنافيان.

وما أخطأه لم يكن ليصيبه أي: ما قُدِّر أن يخطئه فإنه لم يكن ليصيبه، أو المعنى: ما أخطأه بالفعل، لأنه معروف أنه غير صائب، ولو تمنّى الإنسان، وهما معنيان صحيحان لا يتنافيان.

قال ﷻ: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [الحديد:٢٢]، {فِي الْأَرْضِ}: كالجدب والزلازل والفيضانات وغيرها، {وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ}: كالمرض والأوبئة المهلكة وغير ذلك، {إلا فِي كِتَابٍ}: هو اللوح المحفوظ، {نَبْرَأَهَا}: أي: من قبل أن نخلقها، والضمير في {نَبْرَأَهَا}: يحتمل أن يعود على المصيبة، ويحتمل أن يعود على الأنفس، ويحتمل أن يعود على الأرض، والكل صحيح: فالمصيبة قد كُتبت قبل أن يخلقها الله ﷻ، وقبل أن يخلق النفس المصابة، وقبل أن يخلق الأرض.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وكان عرشه على الماء"(٦٢).

(٦٢) مسلم: ٢٦٥٣، وقوله: "وكان عرشه على الماء": يعنى قبل خلق السماوات والأرض، ويوضّحه الأثر الذي جاء عن بعض الصحابة رضي الله عنهم في قول الله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ} [البقرة: ٢٩ وفصلت: ١١]: "إنَّ الله تعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئًا قبل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانًا فارتفع، ثم أيبس الماء فجعله أرضًا، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين، إلى أن قال: فلما فرغ الله عز وجل من خلق ما أحب استوى على العرش"، صححه الألباني (مختصر العلو للذهبي: ص١٠٥)، وانظر تاريخ الطبري: (١/ ٥٣).

٢٦-حدوث الزلازل على ضوء قول الله ﷻ:

{فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [العنكبوت: ٤٠].

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: تمام قدرة الله ﷻ بإرسال هذه العقوبات؛ لأنها كلها عقوبات تدل على كمال القدرة.

الفائدة الثانية: إبطال قول الملحدين في الوقت الحاضر: إن هذه الآيات من الكوارث، فتأتي الزلازل التي هي الرجفة ويقولون: هذه مسألة طبيعية، وتأتي الفيضانات العظيمة التي تدمّر، وكذلك الرياح الشديدة، ويقولون: هذه كوارث طبيعية، لا يعتبرون ولا يرون أنها نوع من العقوبات التي جرت على الأمم السابقة، وهذا من موت القلب -والعياذ بالله-، فيعرض الإنسان عن التأمل والتدبر في هذه الآيات ويضيفها إلى أمور طبيعية، وكأن الطبيعة هي التي تخلق وتفعل دون الله ﷻ.

الفائدة الثالثة: حكمة الله عزوجل؛ لقوله: {أخذنا بذنبه}، سواء قلنا: إن الباء للسببية أو المقابلة.

الفائدة الرابعة: إثبات الأسباب، وكل ما جاء في القرآن من (لام) للتعليل أو (باء) للسببية فإنها تدل على إثبات الأسباب والحكم.

الفائدة الخامسة: الرد على الجبرية ومن وافقهم من الأشعرية الذين يُنكرون الأسباب، وأما نحن أهل السنة والجماعة فنؤمن بالأسباب؛ لكننا لا نقول: إن هذه أسباب مؤثرة بنفسها، لكن بخلق الله ﷻ فيها التأثير.

الفائدة السادسة: أن الجزاء من جنس العمل، وهذا على الاحتمالين في الباء: البدلية أو المقابلة لقوله: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ}، ومن المعلوم أن الجزاء من جنس العمل في الجزاءات الشرعية وفي الجزاءات الكونية.

الجزاءات الشرعية مثل الحدود، فالعقوبات المقدّرة من قبل الشرع كلها في الواقع عقوبات موافقة للحكمة، فقطع اليد بالسرقة لا شك أنه موافق للحكمة؛ لأن اليد بها الأخذ والإعطاء، وقطع الأيدي والأرجل من خلاف في عقوبة قطّاع الطريق موافقة للحكمة؛ لأن قطاع الطريق يعتدون على الناس بأيديهم وأرجلهم، ورجم الزاني بالحجارة دون قتله بالسيف موافق للحكمة، وهكذا كل العقوبات الشرعية والكونية فإنها موافقة للحكمة، ويدل على هذا قوله تعالى: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ}.

الفائدة السابعة: أن العقوبات لا تأتي من نوع واحد، بل تأتي من أنواع متعدّدة بحسب حال المعاقب لقوله: {فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا}، هذه الأنواع الأربعة ذِكْرُها له حكمة؛ لأن قوله ﷻ: {فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا} هذا إهلاكٌ من فَوْق، {وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ} هذا إهلاكٌ من تحْت، {وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ} هذا إهلاكٌ بالقولِ والصَّوتِ، وقوله ﷻ: {وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا} هذا إهلاكٌ بالماءِ.

الفائدة الثامنة: كمال عدله ﷻ لقوله ﷻ: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ}، وهذه الصفة من الصفات السلبية، والصفات السلبية لا تكون مدحًا إلا إذا

تضمنت ثبوتًا، فمجرد النفي ليس بمدح إلا إذا تضمن ثبوتًا: إذا نفى الله الظلم عن نفسه فليس معناه أنه لا يظلم فقط، بل لكمال عدله لا يظلم، وليس المعنى أنه غير قادر على الظلم بل هو قادر ﷻ على أن يظلم لكنه لكمال عدله لا يظلم، ولو كان غير قادر على الظلم لم يكن نفي الظلم عن نفسه مدحًا.

المهم أنَّ مجردَ النفي لا يدل على الكمال حتى يتضمن مدحًا، ولهذا قالوا في قول الشاعر(٦٣):

قُبَيِّلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ ... وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

هذا ذم وليس بمدح، فهم لعجزهم لا يظلمون.

الفائدة التاسعة: أن الإنسان هو الظالم لنفسه بفعل المعاصي؛ لقوله ﷻ: {وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} ففعل المعاصي حرام؛ لأنه ظلم لنفسك، أما الله ﷻ فلا يظلم أحدًا.

الفائدة العاشرة: أن العاصي ظالم لنفسه لقوله ﷻ: {وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} ووجه ذلك: أنَّ النفس عندك أمانة، فكما أنك ممنوع من نقصها نقصًا حسيًّا فأنت ممنوع من نقصها نقصًا معنويًا، بمعنى أن الإنسان لو أراد أن يقطع يده أو أصابعه أو يسيء إلى بدنه كان ذلك محرمًا، ولهذا من قتل نفسه بشيء عُذِّبَ به في جهنم خالدًا مخلدًا، فجعل النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قاتل نفسه كقاتل الغير في التخليد في النار والتعذيب

---

(٦٣) البيت للنجاشي أحد بني الحارث بن كعب، انظر: شرح نقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة: (٢/ ٥٠١) وقال مستشهدًا بالبيت: "وذلك لضعفهم وقلة دفعهم عن أنفسهم، وغيرهم"، والشعر والشعراء لابن قتيبة: (١/ ٣١٩).

بما قتل به نفسه[٦٤]، وعلى هذا نقول: كل من عصى الله فإنه ظالم لنفسه، ومن هنا يتبيّن لنا معنى قوله: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ} [البقرة: ١٣٠]، وأنَّ العدولَ عن ملة إبراهيم سفه لأنه ظلم للنفس من حيث لا يشعر الإنسان[٦٥].

---

(٦٤) فقد قال رسـول الله ﷺ: "مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا"، البخاري: ٥٧٧٨، ومسلم: ١٠٩.

(٦٥) تفسير سورة العنكبوت: (ص٢٠٠ باختصار).

٢٧-وقوع الزلازل في ظلال قول الله ﷻ:

{أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ}[سبأ: ٩].

من فوائد الآية الكريمة:

الفائِدةُ الأُوْلَى: وجوبُ النَّظَر والاعتِبار في ما حصَل من الآيات في السَّماء والأرض؛ لقَوْله ﷻ: {أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}؛ لأنَّ هذا الاستِفهامَ للتَّوْبيخ ولا يُوبَّخوا إلَّا على تَرْك واجِب.

الفائِدةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ في السَّمواتِ والأرض آياتٍ، لكنَّها للعبد المُنيب إلى الله ﷻ، وأمَّا مَن لا يُريد الإنابة إلى ربِّه فإنه لا يَنتَفِع بهذه الآياتِ، حتى ولو رآها ونظَرَ فيها وفكَّر فإنه لا يَنتَفِع.

الفائِدةُ الثَّالِثَةُ: إثبات المَشيئة لله؛ لقوله ﷻ: {إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ}.

الفائِدةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ ما يَحصُل من الخَسْف والزَّلازِل والنَّوازِل فإنه بإِذْن الله، عُقوبةً للعِباد واعتِبارًا، خِلافًا لِمَن قال: إن هذه أُمورٌ طَبيعيَّة لا تَدُلُّ على غضَب الله ولا على إِنْذاره، كما هو رأيُ مَن لا يُؤمِن بالله ﷻ، فالخَسْف في الأرض عُقوبةٌ، وما يَأتي من الصواعِقِ والكوارِث الأُفْقيَّة: فهي أيضًا عُقوبة؛ ولهذا قال ﷻ: {إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ}.

الفائِدةُ الخَامِسَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى محيطٌ بالعِباد، لا يُمكِنهم الفِرار من قَضائه وقَدَره، وأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى محيطٌ بكُلِّ شيءٍ، لا مَفرَّ للعِباد منه؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ}.

الفائِدةُ السَّادِسةُ: أنَّ الله يَمُنُّ على العبد بظُهور الآيات له؛ حتى يَتبيَّن له الحَقُّ؛ لقوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ}، وإذا مَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ على العَبْد بالنَّظَر في آياته والتَّدبُّر ازداد بذلك إيمانًا بالله، وإيمانًا بما تَقتَضيه هذه الآياتُ من صِفاته؛ فإنَّ كلَّ آيَة تَدُلُّ على صِفة مُعيَّنة من صِفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فإنْزال المَطَر مَثَلًا يَدُلُّ على القُدْرة والعِلْم والرَّحْمة، وكونه في وَقْت مُناسِب يَدُلُّ على الحِكْمة، وكل شيء مِمَّا يَقَع في السماء والأَرْض فإنه يَدُلُّ على صِفة من صِفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تُناسِبه.

الفائِدةُ السَّابِعَةُ: أن في السَّماء والأرض آياتٍ عَظيمةً لمَن نَظَرَ وتَدَبَّر، وهذا أَثبَتَهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في القُرآن في مَواضِعَ كَثيرةٍ، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ} [الذاريات: ٢٠]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [الرعد: ٤].

والآياتُ في هذا المَعنَى كثيرةٌ، فكُلُّ مَن تَدبَّر ما في السماء وما في الأرض وما بينهما؛ تَبيَّن له من آيات الله ما يُقوِّي إيمانه وَيزيدُه طَمَعًا في فَضْل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وخَوْفًا من عِقابه[٦٦].

---

(٦٦) تفسير سورة سبأ: (ص٨٣).

٢٨-وقوع الزلازل في ظلال قول الله ﷻ:

{إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [فاطر: ٤١].

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: بيان قدرة الله ﷻ على إمساك السموات والأرض فهذه الأجرام العظيمة أمسكها الله سبحانه وتعالى بقدرته بدون معاناة وبدون تعب، وإنّما يقول للشيء: (كن) فيكون، قال سبحانه وتعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} [ق: ٣٨] ، قال الله سبحانه وتعالى: {ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فُصِّلَت: ١١].

الفائدة الثانية: بيان رحمة الله ﷻ بعباده؛ حيث سخَّر لهم السموات والأرض -بل سخّر لهم ما في السموات والأرض أيضًا-، وهذا من كمال رحمته، فلولا رحمة الله ﷻ بعباده لوقعت السموات على الأرض، وهلك الناس وما ترك عليها من دابة.

الفائدة الثالثة: أن السموات والأرض مخلوقتان من جملة المخلوقات، مسخَّرتان بأمر الله؛ ففيه رد على الفلاسفة الذين يقولون بِقِدَمِ العالم، وقِدَمِ الأفلاك، وأن الفلك التاسع -كما يزعمون- هو المدبِّرُ لما تحته!!

بل نقول: هذه الأفلاك كلها مخلوقة لله مسخرة بأمره، ولو شاء الله ﷻ أن تزول لزالت ولم يستطع أحد أن يمسكها؛ وجه الفائدة: أنها مخلوقة من مخلوقات الله فليست قديمة، فإن إمساكها دليل على أنها قائمة بأمره.

الفائدة الرابعة: أنه لا أحد يستطيع أن يدبِّرَ هذه المخلوقات العظيمة الكبيرة؛ لقوله سبحانه وتعالى: {وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ}.

الفائدة الخامسة: توجيه الخلق أنهم إذا رأوا في هذه الآيات: السموات والأرض، إذا رأوا ما يزعجهم ويقلقهم ألا يرجعوا إلى أحد إلا إلى الله ﷻ. فالزلازل والبراكين والكسوف والصواعق وغيرها مما يخوف العالم لا نرجع فيه إلا إلى الله؛ لأنه هو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، ولا أحد يمسكهما إذا زالتا إلا الله.

ولكن كيف نلجأ إلى الله في هذه الأمور: هل نلجأ إليه بالصفة التي أرشدنا إليها النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في صلاة الكسوف؟ أو نلجأ إلى الله تعالى بالصفة التي أرشدنا إليها النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في صلاة الكسوف فقط وما عداه فإننا نلجأ إلى الله ﷻ بالدعاء المطلق؟

هذا محل خلاف بين العلماء رحمهم الله؛ فمنهم من قال إنه إذا وجدت آيات أفقية تخيف العباد فإنه يشرع للعباد أن يصلوا صلاة الكسوف حتى يذهب ما بهم.

فالذين قالوا بالأول: أنه يصلى لكل آية تخوف العباد، استدلوا بقول النبي ﷺ: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده، فإذا رأيتموهما -يعني كاسفتين- فصلوا وادعوا ... "[٦٧] إلخ.

قالوا: وتخويف العباد بالصواعق والزلازل أشد وقعًا في نفوسهم من الكسوف، فإذا شرعت الصلاة للكسوف فمشروعيتها لهذه الآيات من باب أولى.

---

(٦٧) البخاري: ١٠٤٠، وانظر: مسلم: ٩١١.

وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٦٨]، واستدل بفعل ابن عباس رضي الله عنهما حين صلى صلاة الكسوف في زلزلة[٦٩].

ولكن في المذهب[٧٠] يقولون: إنه لا تصلى صلاة الكسوف إلا لكسوف أو للزلزلة؛ احتجاجًا بفعل ابن عباس رضي الله عنهما، ولكن الصواب ما اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإن هذا الذي ذهب إليه يدل عليه التعليل في الحديث: "آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده".

الفائدة السادسة: إثبات العلة والسبب في أفعال الله عز وجل، لقوله سبحانه وتعالى: {إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}.

وإثبات العلل في أفعال الله أو في أحكامه يدل على كماله لا على نقصه خلافًا للناقصين الذين زعموا أن إثبات الحكمة في أفعال الله سبحانه وتعالى وأحكامه تدل على النقص؛ ولهذا نفوا الحكمة عن أفعال الله وأحكامه؛ يقولون: لأن ذلك يقتضي النقص وأنه فعل لغرض أو حكم لغرض، والفاعل لغرض ناقص بدونه، وعلى هذا فيكون نفي الحكمة عن أفعال الله وأحكامه من تنزيه الله سبحانه وتعالى عن النقص!

وفي الحقيقة: أن أي إنسان يعتقد أن إثبات الحكمة في أفعال الله سبحانه وتعالى وأحكامه نقص فهو الناقص، حتى إن الإنسان بمجرد ما يتأمّل في المسألة يعرف أن من فعل لغير حكمة فقد أتى سفهًا، ومن فعل لحكمة فقد أتى رشدًا؛ لأن الرشيد هو الذي يفعل الشيء لحكمة وحسن تصرف، والسفيه

---

(٦٨) سيأتي العزو: (ص٨٤).

(٦٩) سيأتي تخريج الأثر: (ص: ٨٦).

(٧٠) الهداية على مذهب الإمام أحمد للكلوذاني: (ص١١٥)، والإنصاف للمرداوي: (٢/ ٤٤٩).

بالعكس؛ ولهذا قال الله ﷻ: {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا} [النساء: ٥].

وعلى هذا ففي الآية هذه وغيرها من النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة والعقل الصريح ما يدل على إثبات الحكمة لله ﷻ، وأن الحكمة من أَجَلِّ صفات الله ﷻ، وبيانها في أحكام الله وأفعاله من أعظم الأمور وأظهرها.

الفائدة السابعة: إثبات الحكمة لأنه علَّلَ إمساكَ السموات والأرض بكون ذلك مقتضى حلمه ومغفرته.

الفائدة الثامنة: إثبات هذين الاسمين لله وهما (الحليم) و (الغفور) وإثبات ما تضمن ما تضمناه من الصفة؛ لأن كل اسم من أسماء الله فهو متضمن لصفة؛ ليس في أسماء الله اسم جامد أبدًا حتى اسم الجلالة (الله) ليس بجامد بل هو مشتق من الألوهية، وكذلك بقية الأسماء كلها ليست جامدة بل هي مشتقة من معانٍ تدل عليها، والمعاني التي تدل عليها أسماء الله قد تكون متعددة في اسم واحد، كما تقدَّمَ في الدلالة أنها تكون دلالة مطابقة ودلالة تضمن ودلالة التزام[٧١].

---

(٧١) تفسير سورة فاطر: (ص٢٨٩)، وقال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ موضّحًا هذه الدلالات (شرح العقيدة الواسطية: ١/ ١٢١): "فالاسم له أنواع ثلاثة في الدلالة: دلالة مطابقة، ودلالة تضمّن، ودلالة التزام:

١ - فدلالة المطابقة: دلالة اللفظ على جميع مدلوله، وعلى هذا، فكل اسم دال على المسمى به، وهو الله، وعلى الصفة المشتق منها هذا الاسم.

٢ - ودلالة التضمّن: دلالة اللفظ على بعض مدلوله، وعلى هذا، فدلالة الاسم على الذات وحدها أو على الصفة وحدها من دلالة التضمن.

٣ - ودلالة الالتزام: دلالته على شيء يُفهم لا من لفظ الاسم لكن من لازمه ولهذا سميناه: دلالة الالتزام.

٢٩-وقوع الزلازل في ضوء قول الله ﷻ:

{أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [آل عمران: ٨٣].

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضمن فوائد هذه الآية الكريمة:

عموم ملك الله وسلطانه. ويُؤخذ من قوله: {وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا}، وهذا تمام السلطان والملك أن كل من في السموات والأرض فهو مستسلم لله، طائعًا كان أم مكرهًا.

ولذلك لا أحد يمكنه أن يشذ أو يقاوم قدر الله، لو جاء أعتى خلق الله يريد أن يقاوم ما أراد الله ﷻ قدرًا لا يمكنه ذلك أبدًا.

فرعون جبار عنيد أُغرق بما كان يفتخر به: {قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الزخرف: ٥١] أُهلك بالماء الذي كان يفتخر به، وعادٌ استكبروا في الأرض وقالوا: {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} [فصلت: ١٥]، فأُهلكوا بالريح، هواء سخره الله عليهم حتى دمرهم، {فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ} [الأحقاف: ٢٥]، هذا تمام القوة والقدرة.

مثل كلمة الخالق: اسم يدل على ذات الله ويدل على صفة الخلق؛ إذاً فباعتبار دلالته على الأمرين يسمى دلالة مطابقة، لأن اللفظ دل على جميع مدلوله، ولا شك أنك إذا قلت: الخالق، فإنك تفهم خالقاً وخلقاً.

وباعتبار دلالته على الخالق وحده أو على الخلق وحده يسمى دلالة تضمن، لأنه دل على بعض معناه،

وباعتبار دلالته على العلم والقدرة يسمى دلالة التزام، إذ لا يمكن خلق إلا بعلم وقدرة، فدلالته على القدرة والعلم دلالة التزام".

وضعفاء الإيمان اليوم إذا قيل لهم: ارجعوا إلى دينكم، تُنصَروا على أعدائكم، قالوا: كيف ونحن لا نعرف أن نصنع الإبرة، كيف نقاوم أهل الصواريخ، والمدافع، وأهل القنابل الموجهة؟!

لم يعلموا أن الأمر بيد الله ﷻ، وأنه ﷻ إذا شاء أطبق عليهم الأرض تطبيقًا، وخسف بهم إلى السابعة بكلمة واحدة.

لو صدقنا الله لصدقنا الله، ولكننا في الحقيقة ضيعنا أمر الله، فلما نسينا الله نسينا الله ﷻ وتركنا.

سمعت أنا قبل سنوات أن الله أرسل على واشنطن، عاصمة أمريكا، أرسل عليها صواعق من هذا الغمام الذي هو مثل القطن، صواعق دمرتها تقريبًا، حتى قطعت أسلاك الكهرباء، وسكتت المكائن، وصارت هذه العاصمة التي هي من أكبر عواصم الدنيا صارت دامسة، وحصل سطو ونهب عظيم على الفنادق ومحلات التجارة، وهذه الصواعق من أدنى شيء.

الزلزال يضرب الأرض، وفي لحظة واحدة يدمر مئات المدن والقرى، قد حصل هذا الزلزال بكلمة واحدة (كن)، انقلب أعلى الأرض أسفلها، وتغيرت معالم الأرض كلها.

فنحن إذا صدقنا الله صدقنا الله.

يُذكر أن سعد بن أبي وقاص ﵁ وهو يطارد الفرس من مدينة إلى مدينة، حتى وصل إلى دجلة، فانتقل الفرس إلى المدائن من وراء دجلة من الشرق، وأغرقوا السفن، وكسروا الجسور، من أجل أن لا يعبر إليهم المسلمون، فوقف سعد ليس معه إلا الإبل والخيول والراجلة، لا يستطيع أن يجاوز مكانه، فنادى سلمان الفارسي ﵁ وقال له: يا سلمان، أعطنا من

تصميمك للحرب؛ لأنه هو الذي أشار على الرسول ﷺ بحفر الخندق، قال: والله يا سعد لا حيلة إلا ما كان من تقوى الله، ولكن دعني أنظر في القوم -يعني الجند- إن كانوا على تقوى من الله، فإن الذي فلق البحر لموسى سييسّر لنا العبور على هذا البحر؛ لأن هذه الأمة خير من أمة موسى -الله أكبر، إنه الإيمان-.

فذهب سلمان فنظر في الجند فوجدهم في الليل يبيتون لربهم سجّدًا وقيامًا، وفي النهار في شأن الحرب، وما يصلح الحرب، فرجع إليه بعد ثلاث وقال: هم على خير ما يرام، ولكن استعن بالله واعبر، فنادى سعد بن أبي وقاص في القوم وقال: إنا عابرون إن شاء الله، ولكن سأقف، وأقول: باسم الله، وأكبِّرُ اللهَ ثلاثًا، فإذا كبَّرتُ الثالثة فاعبروا، ففعل فقال: بسم الله، ثم كبَّرَ، ولما كبَّرَ الثالثةَ عبر الناس يمشون على الماء، والنهر يسير ويقذف بزبده، وليس مثل البحر واقفًا، ولكنه يجري، يقول أهل التاريخ حتى إن الفَرَس إذا تعب أنشأ الله له ربوة من الأرض، فوقف الفَرَسُ عليها يستريح، حتى عبروا دجلة، فلما رآهم الفرس ضجّوا وصاحوا وقالوا: إنكم إنما تقاتلون جنًّا، لا طاقة لكم بهؤلاء، فِرُّوا، ففروا وخرجوا من المدائن، وانكسروا ولله الحمد براية التوحيد والجهاد الذي أُنْشئ على التقوى؛ لتكون كلمة الله هي العليا وليس طلبًا للشهرة، وليس من أجل القومية، أو العصبية، أو الوطن، ليس على بالهم إلا أن تكون كلمة الله هي العليا، يكون هذا القرآن هو القانون لأهل الأرض.

أهل المدائن هربوا منها، عاصمة الفرس، فجاء المسلمون وفتحوها، وكسبوا من الأموال ما لا يعلمه إلا رب العباد(٧٢) مثل ما قال النبي ﷺ: "لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا -كنوز كسرى وقيصر- في سبيل الله"(٧٣)، وأخذوا التاج -تاج كسرى- وهو الذي يجلس تحته، ويضعه فوق رأسه، مرصّع باللآلئ والذهب، وما شاء الله من حلي الدنيا، فأرادوا أن ينقلوه، فلم يجدوا إلا جملين كبيرين يحملانه من المدائن إلى المدينة، فحملوه على جملين، من المدائن إلى المدينة ثم وضعوه بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه -وما أدراك ما عمر- الذي عدل فعدلوا، وأمن فأمنوا، قال -وهو ينظر إليه-: "والله إن قومًا أدّوا هذا لأمناء"، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "نعم يا أمير المؤمنين إنهم أمناء لأنك كنت أمينًا، ولو أنك رتعت لرتعوا"(٧٤)؛ -الله أكبر- فهذا تاج كسرى من المدائن يوزع بين المسلمين في المدينة، من الذي نصرهم حتى عبروا النهر بخيلهم ورجلهم إلا الله عز وجل، لماذا لا نؤمن بهذا؟

والله إننا ضعفاء الإيمان، أليس الرب عز وجل وهو أصدق القائلين وأقدر الفاعلين يقول: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [الحج: ٤٠، ٤١] تأكيدات لفظية ومعنوية في الآيتين من

(٧٢) انظر: الاكتفا بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفا: (٢/ ٥١١)، والبداية والنهاية لابن كثير: (٧/ ٧٤).

(٧٣) البخاري: ٣١٢٠، مسلم: ٢٩١٨.

(٧٤) تاريخ دمشق لابن عساكر: (٤٤/ ٣٤٣).

الله ﷻ، توجب علينا الأخذ بما جاء في هذه الآية الكريمة، بأي شيء ننصر الله؟ لأن الله شرط: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ} [الحج: ٤٠].

نرى الآن النكبات تأتي على المسلمين متنوعة وما رأينا أحدًا إلا القليل النادر يقول: يا جماعة، ارجعوا إلى دينكم، البلاء منكم.

من الذي يتكلم ويقول: إن الخطأ خطؤنا، والظلم ظلمنا، فلنرجع إلى ربنا، حتى لا يسلط علينا هؤلاء الظالمين؛ لأن الله يقول: {وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأنعام: ١٢٩]، تأتي النكبات وكأنها حوادث مادية، لا علاقة لها بالدين مع أننا مسلمون، هذه الحوادث ما تكون إلا بفعلنا، الكافر ربما يُعطى في الدنيا ما يريد لأنه عُجِّلت له طيِّباته في الحياة الدنيا، يُنعّمُ في الدنيا أكثر مما ينعم المسلم، حتى إذا انتقل إلى الآخرة صار العذاب عليه أشد؛ لأنه ينتقل من نعيم إلى عذاب، فيفقد هذا الذي يدركه في الدنيا فيكون عليه أشد وأعظم.

لهذا وصيتي للمخلصين في مثل هذه الظروف أن يدعُوا الناس ويقولوا: ليس ما أصابنا هو حدث مادي أو خلاف من أجل المال أو الاقتصاد أو الحدود أو الأرض أو ما أشبه ذلك، وإنما هو قدر إلهي سُلِّطَ بعضنا على بعض لأننا أضعنا أمر الله: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى: ٣٠]، أما أن نبقى هكذا، كأن شيئًا لم يجرِ: التاجر في كذبه وغشه، والموظف في خيانته وعدم القيام بالعمل، كل إنسان في الذي هو فيه، فهذا لا شك يدل على موت القلوب وقسوتها، وأنها لا تتعظ، وأن الأمور والحوادث يوشك أن تتطور وتتغير إلى أسوأ؛ لأن الله ﷻ يقدر مثل هذه الأمور لعلنا نحدث توبة، كما قال الرسول ﷺ في الكسوف: "ولكنها آيات من آيات الله تبارك وتعالى يعتبر بها عباده، فينظر من يُحْدِثُ

له منهم توبة"[٧٥]، ولكن أين القلوب الواعية؟ ! نسأل الله تعالى أن يعيذنا من قسوة القلوب وغفلتها.

الحاصل أن الله يُنكر على هؤلاء الذين يبغون دينًا غير دين الله، ويقول: كيف تبغون غير دين الله، والأمر كله لله، وله أسلم من في السموات والأرض طوعًا وكرهًا[٧٦].

(٧٥) مسند ابن الجعد: (٢٦٥٨)، ومسند أحمد: (٢٠١٧٨)، وضعّفه الألباني (ضعيف موارد الظمآن: ص ٣٦).

(٧٦) تفسير آل عمران: (١/ ٤٧٧).

٣٠-وقوع الزلازل على ضوء قول الله ﷻ:

{الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [الحج: ٤٠،٤١].

وتأمّل قوله ﷻ: {إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٤٠] يتبيَّن لك أن هذا النصر محقَّق؛ لأنه إذا كان الله قويًا عزيزًا فكل من أمامه ضعيفٌ ذليل، ثم تأمّل مرة أخرى قوله: {وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [الحج: ٤١] يتبيَّن لك أن القوى الظاهرة المادية مهما عظمت فإن عاقبتها بيد الله ﻷ، هو الذي يجعل العاقبة لمن يشاء والعاقبة للمتقين، وإذا أردت أن تعرف هذا من الناحية التاريخية فانظر ما جرى للأمة الإسلامية في أول عهدها، أسقطت الدول الكبرى العظمى، دولة الروم ودولة الفرس ودولة القبط في مصر، ملكوا مشارق الأرض ومغاربها، هذا من الناحية التاريخية، **ومن الناحية الواقعية زلزلة واحدة في لحظات من رب العرش تدمر كل شيء، ولا يستطيع أحد أن يمنع هذه الزلزلة. فلهذا نقول: إن من ضعف الإيمان أن ينظر الإنسان إلى الأمر المادي، ولا ينظر إلى قدرة الله ﻷ وقوته، إذن لابد أن نسلك أسباب النصر، ونحن إذا سلكنا أسباب النصر بإيمان ويقين تحقَّق لنا**(٧٧).

---

(٧٧) تفسير آل عمران: (٢/ ٣٨١).

٣١-ذنوب تستوجب وقوع الزلازل وعقوبات الله ﷻ.

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وأعطاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، شهادة له بصدقه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ألوهيته وملكه، وحكمه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، الذي بلَّغَ ما أنزل إليه من ربه على أكمل وجه وأتمه صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعه في هديه وسلم تسليمًا.

أما بعد: أيها الناس اتقوا الله تعالى واحذروا أسباب سخطه وعقابه، وتوبوا إلى ربكم بالرجوع عن معصيته إلى طاعته وعن أسباب سخطه إلى بلوغ مرضاته.

احذروا ما حذركم منه نبيكم ﷺ فإنه الناصح الأمين المبلغ، فلقد حذركم ﷺ من أمور فيها هلاككم لتحذروها، وبيّنها لكم لتعلموها، وجاء عنه ﷺ التحذير من أمور أصبحتم اليوم واقعين فيها أو في أكثرها: فعن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا اتُّخِذَ الْفَيْءُ دُوَلًا، والأمانة مغنمًا، والزكاة مغرمًا، وَتُعُلِّمَ لغير الدين، وأطاع الرجل امرأته، وعقَّ أمَّه، وأدنى صديقَه، وأقصى أباه، وظهرت الأصوات في المساجد، وساد القبيلة فاسقُهم، وكان زعيمُ القومِ أرذلَهم، وَأُكْرِمَ الرجلُ مخافةَ شره، وظهرت الْقَيْنَاتُ والمعازفُ، وشُربت الخمور، وَلَعَنَ آخِرُ هذه الأمة أَوَّلَها، فارتقبوا عند ذلك ريحًا حمراء، **وزلزلة**، وخسفًا، ومسخًا، وقذفًا، وَآيَاتٍ تَتَابَعُ كنظام قُطِعَ سلكُه فتتابع"، رواه الترمذي.

وهذا الحديث وإن كان ضعيف السند لكن له شاهد من الحديث[٧٨]، وشاهد من الواقع، فإن الخصال المذكورة في هذا الحديث صارت في زمننا حقائق مشهودة ملموسة فاستمعوا:

الخصلة الأولى: اتخاذ الفيء دولًا: والفيء ما أفاءه الله على المؤمنين، فإذا صُرف عن أهله المستحقين له إلى آخرين لا يستحقونه من أهل الشرف والجاه والغنى والقوة فقد اتُخذ دولًا، قال الله ﷻ: {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ} [الحشر: ٧].

الخصلة الثانية: اتخاذ الأمانة مغنمًا: وهذه ذات معانٍ كثيرة منها أن يخون المؤمن في أمانته التي اؤتُمن عليها، فينكرها أو يتصرف فيها كما يتصرّف الغانم في غنيمته.

الخصلة الثالثة: اتخاذ الزكاة مغرمًا: فيؤدّيها كأنها غرامة وضريبة خسرها، لا يؤديها بطيب نفس واحتساب أجر وتعبد لله ﷻ، وقيام بفريضة من فرائض الإسلام، ومن أجل اتخاذ الزكاة مغرمًا تجده يبخل بما يؤدي منها بتثاقل ونقص، وربّما وضعها في غير أهلها.

الخصلة الرابعة: أن يتعلم العلوم الشرعية لغير الدين، فلا يتعلّمها تقربًا إلى الله، ولا حفظًا لشريعة الله، ولا رفعًا للجهل عن نفسه وعن عباد الله، وإنما يتعلمها لنيل المال والشهادة والجاه والرئاسة.

---

(٧٨) وتبع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ السخاوي حيث قال (الأجوبة المرضية: ٢/ ٥٢٦): "وله شاهد عند الترمذي أيضًا"، وإلا فإنَّ الحديث ضعّفه جمعٌ من أهل العلم، وانظر: الضعيفة للألباني: (١١٧٠ و ١١٧١ و ١٧٢٧)، والفتاوى الحديثية للحويني: (٣/ ٨٧).

الخصلة الخامسة والسادسة: أن يطيع الرجل امرأته ويعق أمه، فإذا أمرته زوجته بشيء لبّى جميع طلبها سريعًا، وإذا أمرته أمه به أعرض أو تثاقل أو أتى به ناقصًا.

الخصلة السابعة والثامنة: أن يُدنيَ الرجلُ صديقَه، ويُقصيَ أباه، تجده ملازمًا لصديقه، يُظهره على أسراره، ويستشيره في أموره، أما مع أبيه، فمتباعد عنه، كاتم عنه أسراه، لا يأنس بالجلوس عنده، ولا ينبسط بالتحدث معه.

الخصلة التاسعة: ظهور الأصوات في المساجد حتى تصبح لا قيمة لها، ولا احترام، يزعق الناس فيها ويصرخون كما يزعقون في بيوتهم وأسواقهم، غير مبالين ببيوت الله التي بُنيت لعبادته وذكره.

الخصلة العاشرة: أن يسود القبيلة فاسقهم، أي أن يكون الفاسق العاصي لله ورسوله سيد قبيلته، إما لظهور الفسق فيهم، وكونه ذا قيمة في نفوسهم، فيكون السيد فيهم من بلغ غاية الفسق، وإما لكون الدين لا أثر له في السيادة والقيادة، والأثر كله للمال والجاه، فصاحبهما هو السيد وإن كان فاسقًا.

الخصلة الحادية عشرة: أن يكون زعيم القوم أرذلهم، والزعيم الرئيس، وكان ينبغي له أن يكون أعلى قومه دينًا وخلقًا ورجولة وشهامة، ولكن تنعكس الأمور، فيكون أرذل القوم في ذلك.

الخصلة الثانية عشرة: أن يُكرم الرجلُ مخافةَ شره، فلا يُكرم الرجل لأنه أهل للإكرام في دينه أو خلقه أو جاهه أو إحسانه إلى الناس، بل هو خالٍ عن ذلك كلِّه، فليس أهلًا للإكرام ولكن لشره وعدوانه يُكرمه الناس خوفًا منه.

الخصلة الثالثة عشرة: ظهورُ القَيناتِ والمعازف، والقيناتُ: المغنيات، والمعازف: آلات العزف والطرب، ولقد ظهرت القنيات والمعازف في زمننا الحاضر ظهورًا فاحشًا، ما ظهرت مثله قط ظهورًا مسموعًا بالآذان ومشهودًا بالعيان في كل وقت، وفي كل مكان: في البيت والسوق والدكان، وفي وقت الصلاة ومع الأذان، حتى صارت المعازف متعة كثير من الناس، ومنتهى أُنسهم، أنسوا بما يصرفهم عن ذكر الله، ونسوا ما خُلقوا له من عبادة الله، وتعلَّقت قلوبهم بمعصية الله، وسيجدون غب هذا الأنس وحشة، وبعد هذا التعلق انقطاعًا وزوالًا.

أيها المسلمون: إنَّ الحليم من الرجال ليقف حيران أمام هذا الانسياب الجارف إلى آلات اللهو والمعازف، وأمام هذا التغير السريع في مجتمعنا، يجلس الواحد من رجل أو امرأة ليستمع إلى صوت مغنٍ أو مغنية، أو يشاهد صورته غير مبالٍ بذلك.

إن الحليم ليقف حيران لا يدري أشيء ران على القلوب حتى التُبس الأمر عليها، وغشّى بصائرها ما يمنع الرؤية، فصارت لا ترى الحق، وشكَّت في تحريم ذلك؛ أم شيء أزاغ القلوب فانصرفت عن الحق مع علمها به، وارتكبت المعصية على بصيرة، هما أمران أحلاهما مر.

أيها المسلمون: إن كل من عرف نصوص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا يشكّ في تحريم المعازف حتى إن رسول الله ﷺ قرنها بالزنا والخمر والحرير: ففي صحيح البخاري[٧٩] عن أبي عامر أو أبي مالك الأشعري أنه سمع

---

(٧٩) قال الألباني في تخريجه (تحقيق هداية الرواة: ٥/ ٧٠): " أي: تعليقًا، وقد وصله الطبراني، والبيهقي، وغيرهما، وإسناده صحيح، وقد صحّحه جماعة من المحققين؛ خلافًا لابن حزم في رسالته في إباحة الملاهي، وقد رددتُ عليها في كتابي: "تحريم آلات الطرب"، وهو مطبوع؛ وذكرتُ شيئًا من

النبيﷺ يقول: "ليكونن من أمتي أقوام يستحلُّون الْحِرَ[٨٠] والحرير والخمر والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب عَلَم[٨١] يَرُوحُ عليهم بسارحة لهم يأتيهم لحاجة -يعني الفقير-، فيقولوا ارجع إلينا غدًا[٨٢]، فيبيّتهم الله ويضع العَلَم ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة".

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ -تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية-: بيان تحريم رسول الله ﷺ الصريح لآلات اللهو والمعازف ثم ساق الأحاديث الدالة على ذلك وهي كثيرة ساقها في إغاثة اللهفان[٨٣].

أيها المسلمون: لقد كنّا إلى زمن قريب نُنكر آلات اللهو، وتُكسر أمام المساجد بعد صلاة الجمعة إتلافًا لها ومنعًا لانتشارها، فصار الوضع إلى ما ترون، فلا أدري أنزل وحي بحلّها لكم؟!، فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، أم أنها التبعية لأكثر الناس بلا روية، فاقرءوا إن شئتم قول ربكم ﷻ: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} [الأنعام: ١١٦].

فاللهم عفوًا وغفرًا وهداية وصلاحًا.

الكلام على صحّته وبعض طرقه في "الأحاديث الصحيحة" (٩١)"، وانظر: كتاب الكاشف في تصحيح رواية البخاري لحديث تحريم المعازف والرد على ابن حزم المخالف ومقلّده المُجازف، لعلي الحلبي.

(٨٠) (الحر): الفرج، والمعنى أنهم يستحلّون الزنا.

(٨١) العلم: الجبل.

(٨٢) قال المُظهري (المفاتيح: ٥/ ٣٢٣): "(يَرُوح)؛ أي: يذهب في وقت الرَّواح، وهو أول الليل، (السارحة): القطيعة من الغنم والبقر والجمل، يعني: يأتيهم راعيهم بدوابهم كلَّ يوم وليلة، فيأتيهم يومًا لحاجة، ويطلب منهم تلك الحاجة فيقولون له: ارجع وأتنا غدًا لنقضيَ حاجَتَكَ".

(٨٣) (١/ ٤٥٦).

الخصلة الرابعة عشرة: شرب الخمور وهي المسكرات من أي نوع كانت، قال النبي ﷺ: "كل مسكر خمر"[٨٤]، ولقد شربت الخمر وكثر شاربوها حتى صارت في بعض بلاد المسلمين تباع علنًا وتُشرب بالأسواق، وربّما سموها بغير اسمها خداعًا وتزيينًا في النفوس حتى سموها (الشراب الروحي)[٨٥] ألا قاتلهم الله أين المتعة للروح في شراب يسلبها عقلها، ثم يعقب تلك السكرة همّ وغمّ، لا يزول إلا بالعودة للشرب ثانية وثالثة، حتى يقضي على العقل والجسم والروح، فأين الشراب الروحي أنى يؤفكون؟!.

الخصلة الخامسة عشرة: أن يلعن آخر هذه الأمة أولها، واللعن إما أن يكون بلفظه، وقد وجد من هذه الأمة من يصب اللعنات على بعض السلف الصالح، وإما أن يكون بمعناه بالقدح في السلف الصالح وذمهم وذم طريقتهم واعتقاد أنها طريق رجعية لا تصلح لهذا العصر.

أيها المسلمون: إنَّ هذه الخصال إذا حصلت فنحن مهددون بتلك العقوبة بريح عاصفة حمراء تحمل الرمال، وتدمر المساكن وبزلزلة تصدع الأرض، وتفسد العمران، وبخسف تتغير به معالم الأرض، وتزول به جبال عن أماكنها، وبمسخ يمسخ به الإنسان قردًا وخنزيرًا، وبقذف بحجارة من السماء كما أرسل على قوم لوط، وبآيات أخر من العقوبات من حروب طاحنة وسيول جارفة وغير ذلك.

فاتقوا الله عباد الله: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: ٢٥].

---

(٨٤) مسلم: ٢٠٠٣، وانظر: البخاري: ٢٤٢.

(٨٥) وقد قال ﷺ: "لا تذهب الليالي والأيام، حتى تَشْرَبَ فيها، طائفة من أمتي الخمر، يسمونها بغير اسمها"، صحيح ابن ماجه للألباني (٣٣٨٤).

اللهم جنبنا أسباب سخطك وعقابك، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين وصلى الله عليه وعلى نبينا محمد وعلى آله وصحبته أجمعين[٨٦].

(٨٦) الضياء اللامع من الخُطب الجوامع: (٦/ ٥٢).

٣٢-مناقشة شبهات .. وجواب اعتراضات.

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد الصالح العثيمين إلى الأخ المكرم ... وفقه الله تعالى، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد: فقد عرض عليّ أكثر من واحد ما كتبتم في الصفحة السادسة من صحيفة (.....) الصادرة يوم السبت الموافق ١٤٢٠/١٢/٢٢هـ حول كسوف الشمس، ويتضمن عدة أمور:

الأول: قلتم: "إنَّ للكسوف تفسيرًا علميًّا يُدرك بالحساب"، وهذا حق لكنه لا يتنافى مع التفسير الشرعي الذي لا يُدرك إلا بالوحي، ولا مجال للعقل فيه إلا أن يصدق ما ثبت بالوحي عن رسول الله ﷺ الصادق المصدوق ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، حيث قال حين كسفت الشمس فيما ثبت عنه في الصحيحين وغيرهما: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده، وأنهما لا ينكسفان لموت أحد من الناس، فإذا رأيتم منها شيئاً فصلوا وادعوا الله حتى يكشف ما بكم"[٨٧]، وفي حديث آخر عند البخاري: "هذه الآيات التي يرسلها الله لا تكون لموت أحد ولا لحياته، ولكن يخوف الله بها عباده، فإذا رأيتم شيئاً من ذلك فافزعوا إلى ذكر الله تعالى ودعائه واستغفاره"[٨٨]، وفي حديث آخر: "فافزعوا إلى الصلاة"[٨٩]، وفي حديث آخر: "فادعوا الله وكبّروا وصلّوا وتصدّقوا"[٩٠]، وعن أسماء بنت

(٨٧) تقدّم تخريجه: (ص ٦١).

(٨٨) البخاري: ١٠٥٩ وهو في مسلم –أيضًا-: ٩١٢.

(٨٩) البخاري: ١٠٤٦، ومسلم: ٩٠١.

(٩٠) البخاري: ١٠٤٤، ومسلم: ٩٠١.

أبي بكر رضي الله عنهما قالت: "لقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالعتاقة في كسوف الشمس"[٩١]، فهذه سبعة أشياء أمر النبي صلى الله عليه وسلم بها عند الكسوف وكلها ثابتة في صحيح البخاري وهي:

١-الصلاة.

٢-الدعاء.

٣-الاستغفار.

٤-التكبير.

٥-الذكر.

٦-الصدقة.

٧-العتق.

وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم فزعاً، وعرض عليه في مقامه ما قال عنه: "ما من شيء كنت لم أره إلا قد رأيته في مقامي هذا، حتى الجنة والنار، ولقد أُوحِيَ إِلَيَّ أنكم تُفتنون في القبور"[٩٢] ثم أمرهم أن يتعوذوا من عذاب القبر.

ولقد صلّى النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الكسوف على وجه لا نظير له في كيفيته وطوله، وكل هذا يدل على أهمية شأن الكسوف من الناحية الشرعية، وأن هناك سبباً لحدوثه لا تُدركه العقول، ولا يحيط به الحساب وهو تخويف الله تعالى عباده، ليحدثوا توبة إليه ورجوعاً إلى طاعته، وهذا أمر وراء المادة لا يفقهه إلا من رزقه الله سبحانه وتعالى علماً بوحيه وإيماناً بخبره.

الثاني: قلتم "كان يصاحب كسوف الشمس في الماضي الخوف والذعر لدى كثير من الناس، وذلك لوجود بعض الاعتقادات الخاطئة حول ظاهرة

---

(٩١) البخاري: ١٠٥٤.

(٩٢) البخاري: ١٨٤، ومسلم: ٩٠٥.

الكسوف، وقد زالت بعد فهم طبيعة نظام المجموعة الشمسية، وحركات كواكبها، وتحديد أوقات الكسوف لمئات السنين القادمة".

وهذه الجملة فيما كتبتم أرجو أن يكون سببها عدم إحاطتكم علمًا بما جاء عن النبي ﷺ في الأحاديث السابقة من أن الله يخوّف عباده بالكسوف، وأن النبي ﷺ نفسه خرج إليها فزعاً فصلاها على الوصف الذي لم يسبق له نظير، وأمر بالفزع إلى الصلاة، وغيرها من أسباب النجاة، وتأمّل يا أخ (...) ما تفيده كلمة: "افزعوا" فإنّها -والمثل لا يدل على المساواة من كل وجه- كما لو قيل لأهل البلد: افزعوا إلى الملاجىء، أو إلى السلاح عند سماع صفارات الإنذار.

وهذا يدل على أنه لابد أن نشعر بالخوف حتى يتحقّق الفزع، إذ لا يمكن فزع بدون خوف، وعلى هذا فتكون الدعوة إلى عدم الخوف عند الكسوف من المحادة لله تعالى ورسوله ﷺ إذ هي دعوة إلى خلاف ما دعا الله تعالى ورسوله ﷺ إليه، فإن صدرت من جاهل بما جاء به الشرع في هذا الأمر، فإنه لا يسعه إذا علم إلا أن يرجع عن قوله الخاطىء، ويدعو لما يقتضيه الشرع، وإن صدرت من عالم بما جاء به الشرع كان الأمر خطيرًا في حقه؛ لأنه يتضمن تكذيب ما جاء به الشرع، فعليه أن يتوب من ذلك توبة نصوحاً يمتلىء بها قلبه إيماناً بما جاء به الشرع، وتصديقاً وإذعاناً، وقبولاً، ويحقّق ذلك بدعوته لما يقتضيه الكتاب والسنة في هذه الأمور وغيرها.

وقولكم: "لوجود بعض الاعتقادات الخاطئة حول ظاهرة الكسوف" أرجو أن يكون مقصودكم الاعتقادات الجاهلية التي أبطلها النبي ﷺ وهي أن الكسوف يكون لموت عظيم، وأن لا يكون مقصودكم اعتقاد تخويف الله

لعباده بذلك؛ فإن هذا الاعتقاد حق وواجب على كل مؤمن بالله تعالى ورسوله ﷺ لثبوت الأخبار به عن رسول الله ﷺ، ومن شكَّ فيه، أو أنكره، أو دعا إلى الإعراض عنه ومحوه من العقيدة فليس بمؤمن بالله ولا رسوله، نسأل الله لنا ولكم السلامة.

وقولكم: "وقد زالت هذه الاعتقادات بعد فهم طبيعة نظام المجموعة الشمسية ..." إلخ؛ إن كان مقصودكم الاعتقادات التي كانت في الجاهلية فقد زالت بإبطال النبي ﷺ لها من قبل، وبما علمه الناس قبل النهضة العلمية الأخيرة من أسباب الكسوف الطبيعية.

وإن كان مقصودكم اعتقاد التخويف الذي أخبر به النبي ﷺ فوالله ما زال عن قلوب المؤمنين به، الموقنين بصحة ما ثبت عنه، وإنما زال ذلك عن قلوب الجاهلين بسنته، أو المعرضين المستكبرين عن قبولها الذين لا يؤمنون بما وراء المادة، ويعجز بطانهم عن سعة ما ثبت به الشرع وما شهد به الحس.

والناس في هذا ثلاثة أقسام:

مفرط في إثبات الشرع يأخذ بما يظهر له منه، ويُنكر الأسباب القدرية فيقول: إن الكسوف ليس له سبب حسي، ولا يمكن أن يُدرك بالحساب، وربما يكفرون، أو يضللون من يقول بذلك.

والثاني: مفرط في إثبات القدر، فيقول: إن للكسوف أسباباً حسية تُدرك بالحساب، ويُنكرون ما سواها، ويضلِّلون من يعتقد سواها مما جاء به الشرع، وكلا القسمين مصيب من وجه، مخطىء من وجه.

والصواب مع القسم الثالث الذين يأخذون بهذا وهذا، فيُؤمنون بما شهد به الحس، وبما جاء به الشرع، ولا يرون بينهما تنافياً؛ لأن الكل

من الله عز وجل فهو الحاكم شرعاً وقدراً، فما جاء به شرعه لا يكذبه ما اقتضاه قدره، فإن الله تعالى يقدر الكسوف بأسباب حسية، لكن تقديره لهذه الأسباب له حكمة وغاية اقتضته وهي تخويف الله تعالى لعباده، كما أن الصواعق، والعواصف، والزلازل المدمرة لها أسباب حسية معلومة عند أهل الخبرة، والله تعالى يُرسلها ليخوِّف بها العباد، والمؤمن العاقل الذي في قلبه تعظيم الشرع وقبوله، والشهادة له بالحق يُوفَّق للجمع بين ما جاء به الشرع، وما ثبت به الحس مما يخفى على كثير من الناس، أما من أعرض وصار في قلبه تعظيم العلوم الأخرى، ومشاهدة المحسوس بغير منظار الشرع فإنه يهلك ويزل نسأل الله العافية.

الأمر الثالث مما تضمَّنه ما كتبتم: "أن ظاهرة الكسوف ظاهرة طبيعية مثلها مثل الليل والنهار"، وأرجو أن تُعيدوا النظر وتتأمّلوا في الموضوع ليتبيّن لكم أن الشرع والقدر لا يسعفان فهمكم هذا:

أما الشرع فظاهر، فإن النبي ﷺ لم يصنع عند حدوث الليل والنهار ما صنعه عند حدوث الكسوف، ولا أمر أمته بذلك، ولو كان مثلهما واحداً للزم أحد أمرين: إما أن يصنع عند حدوث الليل والنهار ما صنعه عند الكسوف، أو أن لا يصنع شيئاً عند حدوث الكسوف كما لم يصنعه عند حدوث الليل والنهار، فلما لم يكن واحد من الأمرين علم أن مثلهما ليس واحداً؛ لأن الشرع لا يفرق بين متماثلين.

وأما القدر: فإن الليل والنهار منتظمان لا يختلفان أبداً، فاليوم والليلة في أول يوم من برج الحمل مثلاً لا يختلفان، وكذلك هما في أول برج السرطان، والميزان والجدي، اليوم والليلة في أول كل يوم من هذه البروج

وأوسطها، وآخرها لا يختلفان في عام عن العام الآخر، أما الكسوف فإنه يختلف في وقته، ومكثه، وحجمه، فقد يمضي عدة شهور ولم يحصل، وقد يحصل متقاربًا، وقد يكون كليًّا، وجزئيًّا، وقد تطول مدته، وقد تقصر.

وأخيراً فإن ما كتبتم قد يكون له أثر سلبي في عقيدة الجاهلين، أو العاجزين عن الجمع بين الشرع والحس، وهذا خطر كبير عليكم، فنصيحتي لكم أن تكتبوا كلمة تبيّنون بها ما جاء عن رسول الله ﷺ من أن الكسوف يخوّف الله بها عباده وأن ذلك لا ينافي أن يكون معلومًا بالحساب، وواقعًا بالأسباب الحسية، فإن الله هو المقدّر له ولأسبابه، لحكمة أخبرنا عنها رسول الله ﷺ وهي تخويف الله تعالى لعباده، فلعلَّ الله أن يمحو أثر ما كتبتم، فإن الحسنات يذهبن السيئات.

كما أنني أتمنى أن لا يُكتب شيء عن الكسوف قبل وقوعه؛ لأن ذلك يقلل من أهمية الكسوف عند الناس، وقد آثرتُ أن أكتبَ إليكم ليكون التعقيب على ما كتبتم من قبلكم، وأسأل الله تعالى أن يوفّقنا لصواب العقيدة، والقول، والعمل، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

٢٦/١٢/١٤٢٠هـ[٩٣].

(٩٣) مجموع الفتاوى: (١٦/ ٢٨٩).

٣٣-الزلازل شُرع لها صلاة كصلاة الكسوف.

سئل فضيلة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا حدث زلازل وصواعق ورياح شديدة خارجة عن العادة فهل يشرع لها صلاة؟

فأجاب فضيلته بقوله: يرى شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يُصلّى لذلك[٩٤]، والعلم عند الله عَزَّوَجَلَّ[٩٥].

---

(٩٤) ذكر ذلك في غير موضع، انظر –مثلًا-: اقتضاء الصراط المستقيم: (٢/ ١٤٧)، والنبوات: (٢/ ٧٣٥)، والمسائل والأجوبة: (ط. الفاروق الحديثة: ص٢٠٥).

(٩٥) مجموع الفتاوى: (١٦/ ٣٢٥)، وقد تقدّم التفصيل في المسألة: (ص٦١).

٣٤-حكم صلاة المبتلى بالزلزال وهو عاجز عن استقبال القبلة.

العاجزُ تصحُّ صلاته بدون استقبال القِبلة، وله أمثلة منها: أن يكون مريضاً لا يستطيع الحركة، وليس عنده أحد يوجِّهه إلى القبلة، فهنا يتَّجه حيث كان وجهه؛ لأنَّه عاجز.

ودليل ذلك قوله ﷻ: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: ١٦]، وقوله ﷻ: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة: ٢٨٦] وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [الأعراف: ٤٢]، وقول النبي ﷺ: "إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم"[٩٦].

ومن القواعد المقرَّرة عند أهل العلم المأخوذة من نصوص الكتاب والسُّنة: أنه لا واجبَ مع عَجزٍ، ولا محرَّمَ مع ضَرورة[٩٧].

ومن الأمثلة: حال اشتداد الحرب، فيسقط استقبال القِبْلة، مثل لو كانت الحرب فيها كَرٌّ وفَرٌّ؛ فإنه يسقط عنه استقبال القِبْلة في هذه الحال.

ومنها: لو هرب الإنسان من عدوٍ، أو من سيل، أو من حريق، أو من زلازل، أو ما أشبه ذلك، فإنه يسقط عنه استقبال القِبْلة[٩٨].

---

(٩٦) البخاري: ٧٢٨٨ مسلم: ١٣٣٧

(٩٧) انظر: إعلام الموقعين لابن القيم: (٢/ ٢٩١ و٤/ ٥٤٢).

(٩٨) الشرح الممتع" (٢/ ٢٦٣).

٣٥-هل يُقنت للزلازل؟

أ-القنوت في النوازل: وهذه هي المسألة الفقهية، فإذا نزل بالمسلمين نازلة، فإنه ينبغي أن يُدعى لهم حتى تنكشف، وهذا القنوت مشروع في كل الصلوات، كما في حديث ابن عباس ﵄ الذي رواه أحمد وغيره[٩٩]؛ إلا أن الفقهاء رحمهم الله استثنوا الطاعون، وقالوا: لا يقنت له لعدم ورود ذلك، وقد وقع في عهد عمر﵁ ولم يقنت[١٠٠]، ولأنه شهادة[١٠١]، فلا ينبغي الدعاء برفع سبب الشهادة.

وظاهر السنة أن القنوت إنما يشرع في النوازل التي تكون من غير الله، مثل: إيذاء المسلمين والتضييق عليهم، أما ما كان من فعل الله؛ فإنه يُشرع له ما جاءت به السنة، مثل الكسوف؛ فيشرع له صلاة الكسوف، والزلازل شرع لها صلاة الكسوف كما فعل ابن عباس ﵄ وقال: هذه صلاة الآيات[١٠٢]، والجدب يشرع له الاستسقاء، وهكذا، وما علمتُ لساعتي هذه أنَّ القنوت شرع لأمر نزل من الله، بل يُدعى له بالأدعية الواردة الخاصة، لكن إذا ضُيِّقَ على المسلمين وأوذوا وما أشبه ذلك؛ فإنه يقنت اتباعًا للسنة في هذا الأمر[١٠٣].

---

(٩٩) مسند أحمد: ٢٧٤٦، وصحيح أبي داود: ١٤٤٣، وأصله في البخاري: ٢٨٠١ ومسلم: ٦٧٧ من حديث أنس ﵁.

(١٠٠) البخاري: ٥٧٢٩، ومسلم: ٢٢١٩.

(١٠١) لقوله ﷺ: "الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ" البخاري: ٥٧٣٢ ومسلم: ١٩١٦.

(١٠٢) وانظر الأثر في سنن البيهقي –وصحّحه-: ٦٣٨٢.

(١٠٣) القول المفيد على كتاب التوحيد: (١/ ٣٠٠)، ومجموع الفتاوى: (٩/ ٢٩٢).

ب-النبي ﷺ "كان لا يقنت إلا إذا دعا لقوم، أو دعا على قوم"، صحّحه ابن خزيمة[١٠٤].

هذا بيان سبب القنوت: الدعاء لقوم كمستضعفين مضطهدين، أو على قوم كمعتدين ظالمين.

إذا نزلت بالمسلمين نازلة لا تتعلق بالآدمي كالأوبئة والفيضانات والزلازل، فهل يقنت الإنسان أو لا يقنت؟ الجواب: لا يقنت؛ لأن هذه تقع كثيرًا في حياة النبي ﷺ ولم يكن يقنت لها، وكل شيء وجد سببه في عهد النبي ﷺ ولم يفعله مع عدم المانع ففعله بدعة، وهذه قاعدة ينبغي أن يُعض عليها الإنسان بالنواجذ؛ لأنها مفيدة جدًا[١٠٥]، وبه ندحض حجة الذين يقولون بالاحتفال بمولد النبي ﷺ أو بالاحتفال بذكرى بدر، أو بالاحتفال بذكرى القادسية، أو ما أشبه ذلك، فبدر موجود في عهد النبي ﷺ مرت عليه في حياته إحدى عشرة مرة، والقادسية أيضًا مرت بزمن الخلفاء الراشدين ولم يحتفلوا بها، فنقول: ما دام السبب موجود في عهد النبي ﷺ ولم يفعل مقتضاه ولا مانع فإن فعله يكون بدعة[١٠٦].

---

(١٠٤) صحيح ابن خزيمة: (٦٢٠)، وصحّحه ابن عبد الهادي: (المحرر في أحاديث الأحكام: ٢٥٠).

(١٠٥) انظر: الاعتصام للشاطبي: (٢/ ٢٨١)، واقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية: (٢/ ١٠٣)، والفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي: (ص٢٠٠).

(١٠٦) فتح ذي الجلال والإكرام: (٢/ ١٣١).

٣٦-تطبيق نظرية الظروف الطارئة على حوادث الزلازل.

إذا اكترى داراً فانهدمت إما بالسيول أو بزلزال -والعياذ بالله- أو بغير ذلك من أسباب الهدم أو أنها هدمت لصالح شارع للمسلمين، فإنَّ الإجارةَ تنفسخ لتعذر استيفاء المنفعة في المعقود عليه، وما قبل ذلك لا ينفسخ، ولهذا قال(١٠٧): "انفسخت الإجارة في الباقي"، وأما ما استوفاه من قبل فهو على ما استوفاه، ولكن هل يؤخذ من الأجرة بقسط المدة أو بقسط المنفعة؟

إذا قلنا بقسط المدّة فمثلًا: هو استأجرها سنة، ومضت ثلاثة أشهر هي موسم الإجارة، ثم انهدمت بعد ثلاثة أشهر، فيلزمه ربع الأجرة؛ لأنه ذهب ثلاثة من اثني عشر، وإذا قلنا: إنه بقسط المنفعة، قلنا: إن أجرتها في هذه الأشهر الثلاثة قد تقابل أجرتها كل السنة، انظر مثلًا إلى بيوت مكة إجارتها في الحج أكثر من إجارتها بقية السنة، فنقول: لا نعتبر القسط بالمدة، وإنّما نعتبره بالمنفعة(١٠٨).

---

(١٠٧) أي صاحب زاد المستقنع وهو الحجاوي.

(١٠٨) الشرح الممتع على زاد المستقنع: (١٠/ ٧٣) مع استدراك وتصويب على ما في المطبوع من المسموع، وهذه المسألة رجّح فيها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي مبناها على ما يُعرف بالفقه باسم: وضع الجوائح أو القانون باسم: الظروف الطارئة، قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ موضّحاً (المرجع السابق: ١٠/ ٧٢): "إنسان –مثلاً- استأجر دكاناً من أجل أن يبيع فيه أموالاً، فاحترقت الأموال، المؤلف يقول: لا تنفسخ الإجارة، ويُلزم هذا الذي احترق ماله بدفع الأجرة؛ لأنه بإمكانه إذا لم ينتفع هو بالدكان أن يؤجّره، وربما تكون الأسعار قد ارتفعت بعد، فلهذا لا تنفسخ باحتراق متاع مستأجر الدكان، واختار شيخ الإسلام ـرَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ أنها تنفسخ؛ لأن هذا عذر لا حيلة فيه، والدكان قد يُؤجَّر وقد لا يُؤجَّر، وقاسه . رَحِمَهُ ٱللَّهُ على وضع الجوائح، فإن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: «إذا بعتَ من أخيك ثمرًا فأصابته جائحة فلا يحل لك أن تأخذ منه شيئاً، بِمَ

تأخذ مال أخيك بغير حق؟" [مسلم: ١٥٥٤]، وهذا الرجل الذي احترق متاعه لم يقبض المنفعة؛ لأن المنفعة في الإجارة تأتي شـيئاً فشـيئاً، وهو لم يقبضـها وتعذر قبضـه إياها بأمر لا قِبَلَ له به، فيكون كالثمر الذي أصابته جائحة، وما ذهب إليه الشيخ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ أولى، لا سيما إذا كان المؤجِّر يعلم أن هذا إنما اسـتأجر البيت لبيع هذا المتاع الذي احترق، أما إذا كان لا يدري، مثل لو جاءه إنسـان واستأجر منه الدكان ولم يقل له شيئاً، فهنا قد يتوجه ما قاله المؤلف ــ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ــ: "أن الإجارة لا تنفسخ"؛ لأن المؤجِّر لا يعلم.

مثله ــ أيضاً ــ ضياع نفقة المستأجر، مثل لو استأجر رجلٌ بعيراً ليحج عليه، فأراد الله ــ ﷻ ــ أن تضـيع نفقته، وإذا ضـاعت النفقة لا يمكن أن يحج، اللَّهم إلاّ بقرض، والقرض لا يلزمه، يقول المؤلف: "إن الإجارة لا تنفسـخ"؛ لأن العذر هنا لا يتعلق بنفس المعقود عليه، ونقول لهذا الذي ضاعت نفقته وترك الحج: بإمكانك أن تؤجِّر البعير.

والقول الراجح في هذه المسألة أن الإجارة تنفسخ؛ لأن صاحب البعير حيث علم أن الرجل استأجرها ليحج عليها، وأن نفقته ضاعت فالعذر هنا واضح ولا قِبَلَ له به، فهو كوضع الجوائح"، وانظر: فتح ذي الجلال والإكرام لابن عثيمين: (٤/ ٦٤) ففيه تفصيل للمسألة، والله الموفق.

فهرس المحتويات


تَمَّ
بحمدِ اللهِ

